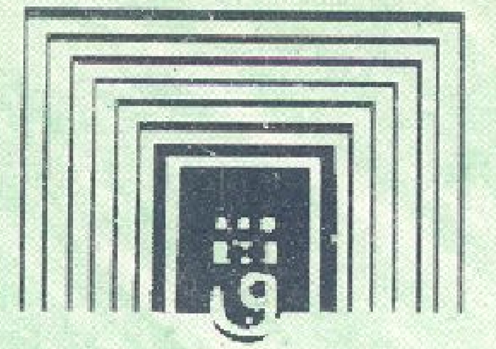


الهيئة العامة
لقصور الثقافة

209



أصوات
أدبية

طلل النار

يوسف أبو ريه

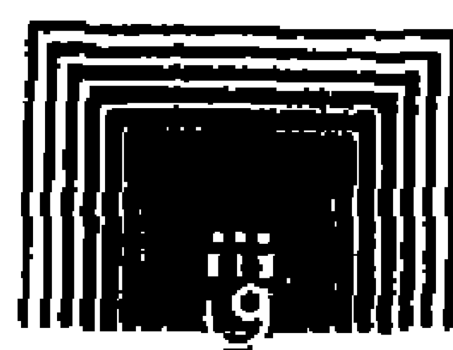




ظل النار

يوسف ابو ريه

قصص



1997

ظلال النار - قصص
الطبعة الأولى - مايو 1997

الهيئة العامة لقصور الثقافة
أصوات أدبية (أسبوعية) - 209

المراسلات : باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
16 أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : 11561



طلل النار

«وأرادت أن تسجد أمام الصنم، لكنّ الطفل صاح: «إني لم أمت. فتعالى هنا يا أمىّ فإنىّ بخير، وإن كان ظاهرى أننى وسط النار! إنّ هذه النار حجاب للعين، يمنع عنها الرؤية، فها هى ذى الرحمة قد أطلّت من الخفاء.

فتعالَىْ يا أمىّ، وانظرى برهان الحق. (انظرى) لتشاهدى سعادة أصفياء الحقّ!

تعالى وانظرى الماء الذى يتبدّى لك ناراً، ودعى هذا العالم الذى هو نار تبدو كالماء؟

أقبلى، وادعى الآخرين (للحضور) معك، فكل شىء سوى هذه العذوبة عذاب!

أقبلوا جميعا مثل الفَراش! أقبلوا إلى ذلك الخطّ، فهنا مائة ربيع!

كان الطفل يصيح على تلك الوتيرة وسط الجمع، فامتلأت قلوب الناس رهبةً وخوفاً.

فأخذ الخلق من رجال ونساء – دون وعى منهم – يلقون بأنفسهم فى النار.»

(بتصرف من مثنوى جلال الدين الرومى)

القســـم الأول

طلل النار

رأيت أمين الأعمى أمام فوهة الفاخورة الملتهبة، يلقمها حفنات من «السرس» فتلعلع النار الحمراء وتمد ألسنتها فى موجات متعاقبة تطلب المزيد، وهو ينحنى على الچوال أمامه، ويقذف فى الفم النهم، والطفل الذى رأيته فجأة فى ظلام الشارع، سار بخطوه المهزوز بين أوانى الفخار الطرية المصفوفة على حبات الحصى.

قلت: إن سقط سيفسد الآنية، وربما يؤذيه صاحب الفاخورة.

ولحقت به، ورفعته بين ذراعى، وعدت به إلى الدار التى خرج منها، كانت للدار رحبة مبلطة. ينفتح عليها باب خشبى سميك، ووجدت الباب مواربا، طرقت بجانب يدى، ولم اسمع ردا، برغم النور الذى يضئ الصالة، وصوت المذياع يتردد من مكان ما، ورأيت وجه الطفل فى النور، فكان يشبهنى تماما، وهو حملق فىَّ مشدوها وأنا ثبت نظرى عليه، وتذكرت أن تلك الدار كانت لنا، فى يوم بعيد، وجرؤت على الدخول.

كانت أمى بطرحتها البيضاء جالسة على الكنبة، وجهها على يدها، وإلى جوارها أختى الكبيرة، وانتبهت أمى، وقامت إلىَّ

لترفعنى بين ذراعيها، ووجدتنى خفيفاً، وقابلاً للحمل، ومدَّدت جسدى على وركيها، وقالت: قلت لك أكثر من مرة لا تذهب عند الفاخورة.. ألا تخاف ظلام الشارع؟

وسألتها: هل سمحوا لك بالعودة مرة أخرى؟

قالت وهى تلملمنى إلى صدرها بحنو: من الذين سمحوا لى؟

ونظرت إلى أختى بذهول، وواصلت أنا الكلام: استدعونى من عملى، وقالوا لى أمك مريضة وهى فى شوق لرؤياك، وركبت قطار الليل حتى وصلت إلى البلد صباحاً، وجدت النعش والمغسلة مركونين على جدار الدار، والرجال اصطفوا على الكراسى، وادركت أنك رحلت دون أن أحضر ساعتك الأخيرة.

– أنت يا ولد تتحدث عن موتى بجرأة.. ألا يحزنك أن ترحل أمك، وتدعك صغيراً لا حول لك ولا قوة؟

– ولكنكِ مت وأنا كبير اتحمل المسئولية، ورغم ذلك حين وجدتكِ ممدة جهة القبلة لم اتمالك، ورحت أبكى كطفل، ثم سحبونى بعيداً عنك، فى تلك الدار المجاورة للطاحونة.

– ولكنها مسكونة الآن.

– سيتركها المستأجر يوماً وننتقل إليها، وقبل أن يحدث ذلك سنعيش فى دار ودار ودار.

- ربما.. ولكن يجب أن تنام.

وبدأت تهدهدني، واستسلمت لها، ولما استشعرت ثقل جفوني، قاومت النوم، وانسللت من حجرة أمي التي تركتها على حالها كما رأيتها عند دخولي، واتجهت إلى الحجرة التالية.

في هذه الحجرة كنت - في يوم ما - اقضى القيلولة على سرير مرتفع إلى جوار أمي، وأختي الكبيرة كانت تقضي وقتها وحيدة في حجرة الجلوس، لما سمعت الدفع القوي على الباب، فتحته، لتجد زوجة أبي، وأزاحتها من أمامها، واقتحمت الدار إلى الحجرة التي تنام فيها أمي، وجرجرتها إلى أرض الحجرة، وقامت أمي فزعة، وأنا صرخت، وأختي الكبيرة انسحبت بهدوء إلى حجرة الجلوس، ولم تهتم، واستطاعت أمي أن تتمالك نفسها وتفيق من المفاجأة، كانت زوجة أبي تصرخ في وجهها بكلام لا أفهمه، والتقطت أذني كلمات متناثرة، إنها ستتزوج سيد سيده..» «أنت يا سارقة العرسان..»

وتذكرت هذا الرجل الأنيق الذي يختلي بأختي في الحجرة، وكنت اتطفل عليهما، واقعد بينهما، ويمنحني القرش، لأذهب به إلى الدكان، وغافلني مرة، وقبلها على خدها ونقلت ذلك إلى أمي. فقالت: لا عليك فهو في حكم الزوج.

وكان يحلو له الجلوس على كرسى وراء الباب يراقب المارة.

وجاء يوماً ومعه نسوة من أقاربه يرفعن السلال على رؤوسهن، ويزغردن، لما سمعت أمى الزغاريد خرجت إليهن، وطوحت السلال عن رؤوسهن وهى تبكى وصرخت فيهن: أليست فى قلوبكن رحمة!

وكانت حزينة لأن أخاها الأكبر يقضى مدة عقوبة فى سجن العاص ـة، وقالت لها أم العريس: دعينا نفرح.. إنه ولدى الوحيد.

لكن أمى أزاحتهن عنها، وحلفت ألا يدخلن، وكان الرجال قد افترشوا الحصر الجديدة فى حوش الدار الكبيرة، وكان أبى بينهم يستقبلهم هاشاً، وجاء إلى النسوة يطيب خاطرهن، وقال لهن: إن قلبها كالبفتة البيضاء، ولكنها حزينة من أجل أخيها. وسحبهن إلى الدار الكبيرة حيث انتشرن بين ردهاتها، وظنت أمى أنها مكيدة دبرتها الضرة لتغيظها. وأقبل أبى إليها ليهدئ بالها، وقالت أمى باكية: إنك لا ترضيهن.. إنما ترضى تلك «العقربة».

فلم يتحمل أبى قولها وصفعها على خدها، وسقطت مغشياً عليها، وأهملوها حتى كتب المأذون الكتاب، وصحب العريس عروسه فى سيارة أجرة إلى شقتهما الجديدة تلك الشقة التى

ذهبت إليها صباح اليوم التالي بصحبة أمي، وصعدنا سلماً له درابزين من حديد، كان البيت عتيقاً ورطباً ولكن الشقة كانت مدهونة بجير جديد، وضعت أمي سلة الكعك والبسكويت، ولم تصافح العريس، واختلت بابنتها فى حجرة النوم، بينما قعد العريس معى يداعبنى ويقلب فى بيجامتى الجديدة، وعلى وجهه ملامح سخرية ابغضها.

تذكرت ذلك، وادهشنى أن أختى لم تزل هنا جالسة مع أمها التى عادت لغفوتها بعد أن انسللت من بين يديها، وكنت فى نفس هذا اليوم فى زيارة لها، وكانت تجلس بين حفدتها، وزوجها كان غائباً عند زوجته الأخرى التى تعرف عليها فى قطار القاهرة، وعقد عليها خلسة، وفوجئت أختى بالورقة تأتيها على يد المحضر، وهى فى حرب معه منذ ذلك اليوم، وكانت تعانى مرض السكر، وانتشرت التجاعيد على وجهها.. كيف عادت صبية فى ريعان الشباب ترتدى الروب بالورد الكبير وتقعد بوداعة إلى جوار أمها وكأن أمرى لا يعنيها فى شىء؟

وارتفع فجأة صوت المغنى، «الواد أبو عين كحيلة كان فايت من هنا.. آه.. كان فايت من هنا.» ورأيت السماعة معلقة على الجدار، والسلك يمتد حتى يخرج من أعلى الباب ليعبر الشارع الضيق بين الدارين. فالسماعة متصلة بمذياع يعمل ببطارية،

وهم في الدار الكبيرة يتحكمون فيما نسمعه، ولا إرادة لنا في الإختيار، حريتنا فقط في الفتح أو الغلق، وكان هذا بغرض اضطهاد أمي، لأن الضرة هناك تفتح المذياع على ما تريد، وترفع الصوت عند مقطع الأغنية الذي يحمل معاني الكيد، فكانت ترسل الرسائل إلى أمي عبر مادة الإذاعة، وحين يقضي معنا الأب أسبوعه لا ترفع صوت المذياع إلا بمقاطع الغناء التي تحمل معنى الهجر والصد.

وسرت إلى عمق الدار، وفتحت باب حجرة الفرن، كانت مظلمة قليلاً يبدو أنها مهجورة من فترة ليست بالبعيدة، هنا كنا نقضي ليالي الشتاء، قبيل المغرب تشعل أمي الفرن، وتسد طاقات الحجرة جميعاً بكتل من القش، وتفرش لنا حصيراً على سطح الفرن، وساءلت نفسي: ولكني لم أر أخي الأكبر معهن.. أين يا ترى يقضي سهرته؟ ربما في إحدى هذه المقاهي عند السكة الحديد، ولكن سرعان ما سيعود بعد أن تنقضي السهرة. فاليوم هو الخميس، والتلفزيون يذيع فيلماً عربياً جديداً، اذكر أني كنت حريصاً على العودة السريعة لألحق به في بيتي. وزوجتي الآن بانتظاري. وكنت وعدتها بأني سأعود بالعشاء، ونشاهد الفيلم معاً، ماذا ستقول عن تأخيري، ربما اتصلت بالتليفون لتسأل عني. عند الصديق الذي تعلم أني أقضي ليلي

عنده.

في صباح ربيعي، وكانت هذه الحجرة قد هجرت طويلاً، أرادت أمي أن تنظف الفرن، وتسحب كل الرماد المتراكم بالجاروف، وفوجئت بعدد الأرانب التي تتقافز نحوها، وامتلأت الحجرة بالأرانب الصغيرة، وصاحت أمي مهللة: كتر.. كتر.

ونادت على أختي لتغلق باب الدار حتى لا يدخل من يضر بالثروة الغالية. ورأيت أمي بعدها وهي حزينة على هذه الأرانب، واتهمت إحدى الجارات المعروفة بالحسد، واتهمت أختي بالإهمال، فمن المؤكد أن الجارة غافلتها وتسللت إلى هذه الحجرة، ووقعت عليها عينها التي يندب فيها رصاصة، وأدت إلى موت الأرانب عن آخرها، ولم تفلح جهود أمي في الرُقيا وفي إطلاق البخور، ولا في ثقب العروس الورقية بعين كل من تظن أنها رأتهم، ورمت «الشبة» في النار بين البخور، وانتظرت، وانتظرنا معها حتى تشكلت «الشبة» بملامح الجارة، كانت كتلة متفحمة لامرأة ترتدي الجلباب الأسود، وتواري وجهها الضخم بشال القطيفة، ورغم ذلك عرفناها من عجيزتها الكبيرة، وبصقنا عليها جميعاً، لأن عينها الحاقدة أرسلت المرض الذي أنحل جلد أرانبنا، ولم يُبق منها واحدة.

واردت أن اعود إلى الشارع مرة أخرى، وحانت مني التفاتة

إلى الحجرة الأولى فرأيت أمي وأختي علي حالهما من السكون والانصات للمذياع الذى انخفض صوته حتى صار همساً، لا تلتقطه إلا الأذن المنصتة.

وواجهتني دار «برهم» صاحب الفاخورة، وواجهني مرة أخرى أمين الأعمى الذى يعمل بإستغراق في قذف النار بالسرس، والنار لم تزل فى مهرجانها الملعلع.

قلت لنفسي: مات أمين من مدة قصيرة.. بعد أن أهلكته الشيخوخة وظلم أخيه له.

كنت متيقناً من أن «برهم» قد ظلمه، وكتب كل شيء لنفسه، ولم يدع له إلا حجرة قديمة هناك بالقرب من الدولاب الذى يصنع الفخار.

مات أمين، وكان فى أيامه الأخيرة يعيش على عطف الناس وإحسانهم، ورأيت أطباق الطبيخ تسعى إليه فى ليالى رمضان، كان قبل ذلك قد عجز عن الذهاب إلى المسجد حيث اعتاد الحى صوته يؤذن لصلاة الفجر.

ها هو الولد «دبابة»، يرفع الفخار النى من الدولاب ليضعه على الحصى، دبابة الذى كان يقضى قيلولته تحت ظلة دارنا، وكنت أجالسه، ويقص علىّ حكايات عجيبة، وفى يوم ذهبت إليه

فى موعد راحته فلم أجده، وعدت إلى أمى لأسألها: لم أجد «دبابة» فى مكانه. قالت وهى تربت على صدرى مشفقة: «دبابة» لن يعود.

- طرده «برهم» من عمله؟

- أبداً.

- وجد عملاً آخر بعيداً عن الفاخورة؟

- اختاره الله إلى جواره.

- ولماذا هو بالذات؟

- أنت ثرثار.. مات دبابة أمس.

- هل ضربه أحد على رأسه.

- بل غرق فى النهر.

وتخلت أمى عن حذرها، وأخبرتنى بأن «دبابة» كان معتاداً على الذهاب إلى النهر بعد نهاية عمله ليشطف جسمه من الطين. وفى هذه المرة ذهب إلى النهر كعادته، ولكن التيار غلبه، وجرفه إلى العمق، ولم يقدر أحد على إنقاذه، وجلبوا الغطاسين من المدينة، وراحوا يبحثون عنه فى قاع النهر، فلم يعثروا له على أثر.

- كيف سيبعثه الله يوم القيامة وهم لم يعثروا عليه بعد؟

– وجدوا جثته في بلد بعيد.

– سبح كل هذه المسافة وهو ميت؟

– أخذه التيار إلى هذا البلد، ومنعته شبكة القنطرة من المرور حتى طفا على سطح الماء.

– واتوا به إلى بلدنا؟

– ودفن في مقابر الصدقة.

ودخلت دار «برهم»، كان على شمالي مربط الحمار، يقف فوق فضلاته التي تفوح بالصالة، التفت الحمار نحوي، وهش بذيله، وأوسع لي الطريق، وطرقت على باب الغرفة التي ينبعث من خصاصها نور خفيف، ودفعت الباب، لأجد ابنه ينكفئ على طبلية عليها لمبة جاز، رفع رأسه قليلاً ليرى شبحي في الظلمة البعيدة، كان معظم النور يتشكل دائرة فوق الكتب والكراريس، فالولد ثقب ورقة ووضعها على زجاجة اللمبة لتجمع له الضوء، وعلى مسافة منه يتمدد أبوه وأمه وأخوه الصغير، كان أبوه ينام بدون سراويل، وجلبابه ارتفع إلى أعلى صدره بانت آلته راقدة بطولها حيث يقع نظري، فقام على التو ليسحب جلباب أبيه إلى أسفل، ويداري عورته وقلت له: أبوك دائما ينام بينما رجاله يعملون في الفاخورة حتى الصباح.

قال بإهمال: هذا عملهم وأبى ينام لأنه يستيقظ وأمى مع الأذان، ليشدوا الحمار فى العربة، ويرفعا الفخار إلى الأسواق البعيدة.

وتركنى الولد إلى كومة القوالح فى ركن الحجرة وسحب منها علبة صدئة، فتحها واخرج منها لفافه وقال: كما وعدتك.. انظر.

ورأيت أوراقاً مالية من فئة العشرة جنيهات الكبيرة الحمراء. وقال: حتى تخبر الأولاد فى المدرسة أن أبى لا يقل غنى عن أبيك.

– ولكنك تبيع لهم الملح فى المدرسة.

– هذه تجارة.

وقضيت معه وقتاً طويلاً نحفظ النصوص، ثم تركته قبل أن يذهب أمين الأعمى إلى المسجد ليطلق أذان الفجر، وأمين إن ترك الفاخورة تنطفئ نارها، ويتوقف العمل، ويصبح المكان موحشاً، وأنا أريد العودة إلى دارى فى ونس العمل وونس النار المشتعلة.

وسمعت صياحاً فى دار الجيران، وزغاريد منطلقة من نسوة هرعن إلى هذه الدار، وانعطفت إليهن، كانت الردهة عامرة بالنسوة المبتهجات، والأولاد الزائطين فى حلقة يقف وسطها

الولد فرج، وجدته العجوز ترفع مقطفاً على رأسها به أرغفة من خبز طرى، وترقص به وسط الحلقة والنسوة يصفقن ويطلقن الزغاريد.

وسألت: متى عاد فرج من غيابه؟

وقال أحدهم: عثروا عليه فى الأسكندرية البعيدة يبيع الأمشاط للمصطافين، وها هى جدته فرحة بعودته، بعد أن فارقها نور عينها، فهو حفيدها الوحيد لولدها الذى مات منذ عامين.

ورقصت مع الراقصين وصفقت مع المصفقين، ونظر إلىّ فرج، وأقبل جهتى وقال: ألا زلت على خصامك؟ قلت: لا.. بل حزنت لهروبك.

وكنا قد تشاجرنا قبل رحيله بأسبوع، لأنه عيّرنى بورم عينى، وزفنى مع الأولاد فى الشارع: أبو عين وارمة شخت عليها الحاجة سالمة.

ولهذا السبب عقدنا أصبعينا، وتفل كل منا على أصبع الآخر، ووقع الخصام، وها هو يحادثنى الآن بود، ويهمس فى أذنى: سأقص عليك كل ما رأيت فى رحلتى.

وسألنى على حين غفلة: هل ركبت القطار يوماً؟

قلت: ركبته حين ذهبت مع أمى لزيارة خالى السجين.

- ولكنك ركبته من الداخل مع الناس... أما أنا فقد اعتليت سطحه، وركبت جراره، ومررت من تحت كبارى كثيرة.

وسألنى مرة أخرى: هل رأيت شاطئ البحر المالح؟

- سأراه حين أزور قريبتى ساكنة الأسكندرية.

- أنت تدعى كل شىء.

- أنا لا ادعى، فأنا ركبت القطار فعلاً... من الداخل مع الناس المحترمين وليس كالفاسدين من أمثالك الذين يعتلون سطحه.

وصفعنى على وجهى بغتة، واشتعلت غضباً، فحجّز بيننا الناس.

واندفعت إلى الشارع المظلم، ورأيت أمى مقبلة نحوى ترفع وزة كبيرة بين يديها.

- فرج ضربنى يا أمى.

- قلت ألف مرة لا تلعب مع من هم أكبر منك سناً.

- سآتى معك.

- أنا ذاهبة إلى «أم بلح».. عد إلى الدار

- سآتى معك.

وسحبتنى بيدها الفارغة، وطرقت على باب قديم لدار شباكها يبدأ من أرض الشارع ولا يرتفع عنها قليلاً، وكان بمقدورى تسلق قضبانه بسهولة لأرى الحجرة الأمامية، وزجرتنى أمى.

- تأدب.

ودفعت الباب، ودخلنا ردهة طويلة مظلمة، تفوح منهارائحة سباخ، ويتردد بين جنباتها خوار ماشية راقدة فى مكان ما، ودخلنا قاعة بآخر الدار، وكانت «أم بلح» متجمعة على نفسها، فوق فرن منخفض، وألقت عليها أمى تحية المساء، وشكت لها حال الوزه، قالت: البيضة محجوزة فيها منذ البارحة، حاولت بيدى ولكنها لا تطالها.

وطمأنتها العجوز، ومدت يديها نحوها لتمسك الوزة من جناحيها، وراحت يدها تتحسس الريش الأبيض، وتدور على جسم الوزة من الرقبة حتى الخلفية، ورأسها الذى يشيع فيه الشعر الأبيض مال كلية بين ركبتيها، وانغمست فى عملها بإستغراق، والعينان اللتان لا تريان شيئاً البتة انحرفتا بعيداً، وتقلبت فيهما مقلتان بيضاويتان ترتجفان بقلق، وتركت أذنها مفتوحة على آخرها نحونا، وأمى قبعت صامتة تمسك منقار

الوزة التى لا تكف عن الزياط، وتابعت يد المرأة التى اندبت أصابعها الملمومة بشدة حتى اختفت كفها جميعاً، وراحت شفتاها المشعرتان ترددان البسملة. وأخيراً سحبت البيضة المدماة من مؤخرة الوزة واعتقتها تمرح فى «البحاراية» وتنفض ريشها الذى اهتز له نور اللمبة «الصاروخ»، وعدت أنا وأمى إلى دارنا بعد أن مدت يدها إلى المرأة بشىء لم أره.

وهج الفاخورة لم يزل يتراقص على جدارنا، ووجه أمين الأعمى صار قطعة من الجمر، و«دبابه» الذى يتحرك جيئة وذهابا يلتهب بالنور مرة، ويخبو حين ينحدر الدولاب، وأمى قالت: هيا ادخل أمامى.

قلت متمرداً عليها: أريد أن اعود إلى زوجتى فأنا تأخرت عليها جداً.

– أى زوجة يا ولد؟

قلت مسترضياً لها: البنت التى اخترتها لى قبل رحيلك.

ونفضت يدها فى الهواء، وتركتنى وحيداً، وقالت قبل أن تمرق إلى الرحبة المسورة بجدار واطئ: سأغلق الباب.. اذهب أنت وأخوك لتناما فى حضن أبيكما هناك.

واشارت إلى الدار الكبيرة، وشدت الباب وراءها، ورفع أمين

يده عن العمل للحظة لينصت للصوت، ثم عاد إلى حركته الآلية، يدفع رشاش السرس إلى الفوهة، فتصخب موجات النار فى الداخل، و«دبابه» وضع آنية طينية على الحصى بحذر ثم قفل عائداً متلاشياً فى الظلام الذى يتكاثف كلما بعد عن وجه الفاخورة.

وسرت بمحاذاة سور الدار الكبيرة.

التقيت بأخى آيباً من سهرته، كان يردد أغنية تؤنس ليله، ويطرد بها أشباح الطريق.

قلت له: عد كما كنت أمك لن تسمح لك بالدخول.

مد لى يده بحبات من الفول السودانى وسألنى: وأنت كيف تشجعت على الخروج؟

- أنا عائد إلى شقتى.

- شقتك!!

وضحك بصوت عال، ثم سعل بشدة، وتفل على السور، ثم سحبنى من يدى باستخفاف: تعال.. الله يهديك.

- أنا لا أريد أن ادخل.

- ساعدنى على تسلق السطح، واذهب إلى حال سبيلك.

وعدت معه متململاً حتى وصلنا إلى البقعة المضيئة بالنار،

وانعطفنا إلى الشارع الضيق الذى يفصل دار أمى عن الدار الكبيرة، وطلب أن أشبك له أصابع يدى، ليصعد عليها إلى نافذة الكرار، وثبّتْ قدمه فوقهما، وفى قفزة واحدة، كان يضع القدم الأخرى على حافة النافذة المفتوحة، ودخل برأسه، ثم بدأ يتلوى بجسده كثعبان حتى اختفى تماماً، وصاح من الداخل بصوت خفيض: اقذف النعلين إلى السطح.

وعدت اسير بمحاذاة سور الدار الكبيرة، وأنا اتجاهل صوت أخى الذى انطلق فى سكون الليل يستغيثنى، قلت لنفسى: ما باليد حيلة.

وفكرت أن ادخل الدار الكبيرة لأخبر أبى، ربما يتحرك له قلبه، ويقوم لإنقاذه وسمعت صلصلة الأجراس خلف جدار الظلام، وتخشبت قدماى، ورأيته مقبلاً نحوى، يسير سادراً لا يعبأ بمرآى، كان هو بقامته القصيرة ورأسه الكبير، يرتدى «شورت» يصل إلى ركبتيه وتتحلق سيقانه أجراس صغيرة تصدر أصواتاً كلما ضرب برجله فى أرض الشارع، ويداه كانتا ثابتتين إلى جنبيه، ويتحرك مُصدّراً وجهه إلى الأمام بثبات، وعيناه الواسعتان تطلقان الشرر الذى يضىء له الطريق، القزم الذى حكت لى أمى حكايته، أنه يمر كل ليلة فى الشارع، وأنها تنتظره وتقبع وراء الباب كلما سمعت الصلصلة مقبلة من بعيد،

حاولت محادثته أكثر من مرة إلا أنه يتجاهلها تماماً ويسير فى طريقه بحزم وإصرار وقالت: هو أحد أبناء الجن المكلّف بحراسة شارعنا.

وطلبت منها أن تحملنى مرة لأراه، وأبت بحسم، وقالت: إن قلبك الصغير لن يتحمل رؤيته وها هى الأيام تدور، وأراه يمر أمامى الآن وتابعته بناظرى حتى بان للحظة فى وهج الفاخورة، ثم اختفى، ولم يبق منه غير صلصلة تتلاشى رويدا رويدا حتى سقطت فى الصمت.

واحتك بساقى شىء غامض، حاولت تلمسه غير أنه فر مبتعداً، ولم أر غير بؤرتين براقتين تتحركان بين الظلام، والمواء الذى انطلق فجأة من جهة البؤرتين اللامعتين أكد لى أن كائن الظلام هذا مجرد قط، بدأ هيكله يتضح لأنه استحال إلى اللون الأبيض ولكن هذا اللون راح ينمو. وينمو حتى صار بحجم كلب، ولم يتوقف نموه، وإنما الكتلة البيضاء تضخمت حتى صارت بحجم حمار، اقترب منى، وهو ينفخ شدقيه فى الأرض، فجزعت. وعدت بظهرى إلى السور، فاستدار فجأة، وضرب ساقيه فى الهواء، وأطلق من جوفه ريحاً قوياً، وتأكد لى ما قصته أمى، فهذا هو الحمار الذى تلتقى به كلما اضطرتها ظروفها إلى الذهاب ليلاً إلى الخبازة، وللأسف أنا الآن لا امتلك مطواة، كنت

غرستها في كفله، وقلت له آمراً: عد بي فوراً إلى شقتي.. فيأخذني إلى المكان الذى أريد في غمضة عين.

حاولت تلمس السور لا تمكن من الوصول إلى بابه، هذا السور يلتف حول الدار الكبيرة المفتوحة على شارعين، غرفها الكثيرة تمتد بين حوشين، واحد منهما تتوزع في انحائه حظائر الدجاج وغرف كبيرة لخزين التبن والحب. أما الحوش الآخر مجرد مساحة واسعة تنشط في مواسم الحصاد، حيث تأتى الجمال بالأحمال ليدور عليها النورج. وتعمل فيه ماكينة الدراوة في أمسيات تصخب بأصوات الرجال وأنوار الفوانيس. عثرت يدى على الباب الصغير ذى الخشب الرقيق، دفعته وأنا عليم بأنه خالى من الغلق ووجدتنى اقف بين يدى أبى.

كان يرتدى قميصاً أبيض، وكان عارى الرأس، بدون عمامة، يمدد جسمه على حصير تنتشر عليه وسائد كثيرة، كان يركز بكوعه على واحدة منها، وتحت أقدامه تقعد زوجته، ظهرها إلى الحائط، وممسكة أصابع قدميه تطرقعها.

اقتربت منه علّه يسألني عن سبب قدومي، ولم يحفل بى، فوقفت مدة منتظراً.. ثم تقدمت خطوة أخرى، وقلت: يا أبى.

فرفع رأسه قليلاً، وأشاحت المرأة بوجهها عنى، وكفت عن

تدليك الأصابع وطرقعت من فمها.

عدت مرة أخرى اقول متلجلجاً: يا أبى.

ولأنه لم يجب، بل أوحى إلىّ أنه منصت لما سأقول، فتشجعت وقلت: إنى تركت دارنا للتو وأمى هناك تضرب أخى الكبير وهو يستغيث بك.

وطرقعتِ المرأة فمها مرة أخرى وسمعتها تهمهم: عيال آخر زمن..

رد أبى بغضب: اتظنني يا جحش تارك هذه الجلسة لأخرج بقميصى لأنجد أخاك. دعها تقصف رقبته.

قلت: لكن يا أبى هى تضربه..

فقاطعنى بحسم: وما اخرجك فى هذا الليل وأنت تبول على نفسك من ظلام الحجرات؟ قلت له: كنت فى سهرة ومررت من الشارع عائداً إلى شقتى فسمعت استغاثة أخى.

واعتدل فى جلسته ونظر إلى مستنكراً: عائد إلى ماذا.. ماذا يقول هذا الولد؟

ثم وقف بطوله، ودفعنى برفق نحو الباب: عد إلى فراشك واطلب من أمك أن تُحكم عليك الغطاء.

وابتهجت المرأة، وضحكت ببلاهة.

واشار إليها لترفع الفرش والمساند، ودخلت المرأة وراءه، وهو صاح فىّ قبل أن يلحق بها: لا تقف هكذا عد إلى فراشك.

واغلق باب «القارندة» وتركنى اقف ما بين جدار الدار وسور الحوش وحيداً بين شجر التوت الساقط على ماء الطلمبة الأسود.

وكان علىّ أن ادور حول الدار لأجد منفذاً إلى الداخل لأوقظ أحداً من الأولاد الكبار للقدوم معى، ومرقت من نافذة الزريبة، ودخلت من عقب بابها المرتفع إلى الردهة الطويلة.

وفى الحلكة لم أر شيئاً البتة غير نور «سهارى» يضئ أقصى الردهة، هناك إلى جوار المذياع المرفوع على رف خشبى بين الباب الوسطانى، كنت اعلم أنى لو سرت مباشرة سأدخل إلى باحة الفرن، والسلم الذى يرقى إلى «المقاعده»، وإذا انحرفت يساراً بطول متر، سأجد باب غرفة المرأة التى ينام بها أبى الآن، ولمحت بصيصاً من الضوء في ثغرة الباب، فدنوت منه، اتحسس طريقى، وكانت الدار ساكنة إلا من نفخ البهائم وصوت اجترارها المتأنى، وملت على الشريط المضئ بين ألواح الباب، ورأيته وهو ينضو قميصه عنه، ويصعد إلى السرير المرتفع، ويسحب الملاءة على نصف الجسد العارى، بينما المرأة وقفت فى منتصف الحجرة تحل ضفائرها، وتشد صدرها إلى أسفل

مبدية مساحة من نحرها الذى ينعكس عليه الضوء، ثم اختفت من أمامى بحيث لم أعد أرى شيئاً غير جانب من الكنبة وأرضية النافذة المطلة على الحوش الوسيع، واهتز الضوء ثم خفت قليلاً، ومرت بشبحها أمامى متجهة نحو السرير، وأوسع لها مكاناً جهة الحائط، ثم مال عليها، واختفت هى بين ذراعيه، والملاءة بدأت تنحسب عن بدنه قليلاً قليلاً حتى ظهر عريه كله يلمع فى النور الشاحب، وجمعت كفى على فمى، وصحت بآخر عزمى: دارى راسك يا حمام.

وهرعت نحو باحة الفرن، وأخذت الدرج فى خطوات متلاحقة، ووجدتنى اقف لاهثاً على السطح انظر إلى أسفل، لارقب مجيئه، ولكن أحداً لم يرق السلم، فعدت أسير بين صناديق الغلال منكسر الخاطر، وفزعت حشرات تختفى فى الحطب، وسمعت تكسر الأعواد الجافة تحت أقدامى، وجاءنى صريخ أمى من جهة «المقعد» الكبير، فاستدرت نحو الصوت.

دفعت باب «المقعد» وهبطت ثلاث درجات، ورأيت سرير أمى على يمينى مفروشاً أمامه حصيرنا القديم، وفى المساحة الأخرى سريرى أنا وأخى، وهناك فى الجانب المظلم من المكان كانت أختى الكبيرة جالسة على طرف سريرها تنظر إلى أمى التى وقفت على باب صغير وسط «المقعد» تهدد شخصاً أمامها،

وتقدمت إليها، فزجرتنى، ولكنى تشبثت بمكانى انظر إلى أخى المعلق على جذع النخلة ما بين الباب وحائط حجرة التبن.

ودفعتنى أمى صارخة: عد إلى فراشك.

ثم التفتت إلى أخى مهددة: لن تدخل هنا ليلتك.. اذهب إلى أبيك ونم فى حضنه هناك. وأخى ينتحب ويقول لها متذللاً: حرّمت يا أمى لن أعود للسهر بعد الليلة. وتجاهلت أمى استغاثته، واشارت إلى أختى: نادى على أبيك ليتصرف مع هذا الولد.

وردت أختى متبرمة وهى تلتف فى غطائها: كيف اذهب إليه فى هذه الساعة. ولم تجد أمى حيلة غير أن تستعطفنى، وتميل علىَّ بحنو لتقول: اذهب أنت يا صغير.. قل لأبيك غلبها ابناؤك الكبار.

قلت لها وأنا اتجه نحو الباب: لماذا أنتم فى طريقى دوماً... دعونى أعود إلى زوجتى.. لقد انقضى الليل وأنتم لا ترحمون.

واتخذت طريقى إلى السلم، وترددت قهقهات أمى فى رحابة «المقعد» الذى أغلقت بابه من خلفى، تأذيت من هذه السخرية غير المتوقعة، وواجهتنى أجرام الصناديق فى ظلام الليل الحالك، بينما أنا اهبط الدرج إلى الردهة عازماً على العودة إلى شقتى

مهما كلفتنى الوسيلة.

وتردد إلى سمعى الهمس داخل الحجرة، فاقتربت إلى شق النور، وحملقت فلم أتبين غير كتلتين من اللحم متلاصقتين، تبرق عليهما حبات العرق، فانتفض قلبى، واتجهت إلى الباب خارجاً إلى الشارع الآخر.

على عتبة الدار المواجهة رأيت جسداً هزيلاً متكوراً على نفسه، انتبه الجسد إلىَّ وراح يتنأمى، وتنفك اعضاؤه المتجمعة، ليبدى ملامح امرأة مشعثه الشعر، ترتدى خرقاً بالية، انتفض الرأس نحوى، فأردت أن اعود بظهرى إلى الداخل، ولكنها صاحت فى صمت الشارع: تعال فأنا بانتظارك يا ابن العاهرة.

ووقفت ازنو إليها حتى بانت تقاطيع الوجه الكهل، هى زاهية تلك المرأة العانس التى تعيش مع أمها، وكانتا قد نزلتا البلد - منذ عهد بعيد - دون عائل، ابتاعت الأم هذه الدار، وبدأت تتكسب من ماكينة الخياطة، تخيط للأولاد ملابس العيدين وتخيط لنسوة الشارع جلابيبهن وقمصانهن، وعلّمت البنت حرفتها، والغريب أننا لم نر رجلاً يدخل عليهما الدار قط، وكانت زاهية لا تفوت فرصاً، بل كانت تنصح النسوة، وتلقى عليهن المواعظ، ووجدناها فجأة تهمل زينتها، هى النظيفة الطاهرة، وتترك الجلباب على بدنها حتى ينتن وتفوح منه رائحة زاعقة، قالت أمى كأنما تحادث نفسها: ما الذى حدث للمسكينة!! كيف انقلب

حالها!! ثم رأيناها تهمل غطاء رأسها، وتقعد على عتبة دارها برأس عارٍ، وكان الشيب قد انتشر فى أغلبه، وضفائرها صارت منكمشة كقرنين كبيرين على صدغيها، ثم خرجت يوماً محلولة الضفائر، وانتفشت عكشتها، وبعد أن أهملت غسلها، وانهدل الثوب عن أكتافها، وتمزق عند مواضع الحياء فيها، ثم بدأت تخرج من الصباح الباكر، وتظل تلعن أشباحاً تراها، وتدافع عن عفتها أمامها، وتدعى أن هذه الأشباح قد روجت شائعات كاذبة عن شرفها، وصار اللسان العف لا يتحرج من قذف السباب لكل عابر.

وركب دماغها أن أمى هى المروجة لشائعة أن رجلاً بعينه يزورها ليلاً، وبالغت فى هذا الظن حتى أنها تيقنت أن أمى أجرت لأخى الكبير سيارة بميكروفون تجول فى أنحاء البلد ليشيع خبر عهرها، ثم انحصر كل سبابها حول أسرتنا، فأبى مجرد لص ينهب الناس، وزوجتاه مومستان التقطهما من الطريق، وأولاده «ملطشة» لكل من هب ودب من أبناء الحى، يختلون بهم فى الخربة المجاورة لدارها.

وادعت فى نهاية الأمر أن أبى يسلط عليها رجاله ليقفزوا - ليلاً - من سور الجامع، ويحدثوا جلبة فى أوان فارغة، لإرهابها حتى تدع الدار وتفر هاربة، ليخلوا له الأمر، ويضمها إلى داره الصغيرة التى تسكنها أمى.

ولما رأتني في هذه الليلة انفتحت شهيتها للسباب، وكأنما صارعت القهر قبل أن تراني، لأن لسانها راقد في فمها دون عمل، واستنفرت تماماً حتى قامت ترقص على مساحة العتبة دون أن تتعداها. ولما أردت التسلل خفية إلى الدار قدمت في وثبة واحدة لتمسكني من قفاي: تعال يا ابن العاهرة تركت أمك في حضن من الليلة؟

قلت لها بصوت مخنوق بالبكاء: خرجت استغيث بأبي لينقذ أخي، فأمي تهدده..

قالت وهي تجرجرني نحو دارها: تعال لأريك ما تفعل بأمك.

ودفعتني إلى الداخل، ووقفت لا أريم، وأنا فاقد الحيلة، وحاولت أن اتلمس في عينيها علاقتنا الأولى. يوم كانت تقربني إليها دون أولاد الحي، وتسألني عما قرأت في الكتّاب، وتعيد معي حفظ السور، يوم كانت تدفع لي كتباً صفراء قديمة اتلو عليها منها دون أن افهم حرفاً مما أقرأ، وهي تمصمص شفاهها، وتهز ظهرها إنتشاءً، وتردد بعد كل مقطع: الله.. الله.

ودفعتني نحو حجرة مفتوحة على آخرها قائلة: هذا ما فعلته أنا بأمي.. لو أنك رجل من ظهر رجل لفعلت مثلي.

ورأيت لمبة الجاز معلقة بمسمار وتحتها بالضبط وعلى وسادة

السرير بقعة من النور محصورة فوق رأس أمها، كان الوجه مضيئاً بحيث لم أدر أينعكس عليه ضوء المصباح أم أن الوجه هو الذى يمنح للمصباح نوره. ودخلت أمامى لتكشف لى الغطاء لأرى الجسد العجوز عارياً، فأخفيت عينى بكفيّ. واستلقت هى على الأرض مهللة بجنون: يا جبان.. أنت لم تحتمل هذا لثانية أما أنا فأعيش معه العمر كله.

وظلت راكعة على الأرض، ومدت يدها نحو الجسد تتحسسه، وانقلبت سحنتها، وتأهب الوجه لبكاء مباغت، فمالت برأسها على الحافة، وبدأ كتفها يهتز فى دفعات، فتحينت الفرصة وهرعت إلى الخارج، وعند مرورى من تحت نافذتها وجدتها واقفة وراء قضبان النافذة، وصرخت فى وجهى: نفدت يا ابن العاهرة.

واتجهت إلى الباب المقابل أهزه فلم ينفتح. فقلت ولماذا اعود إلى أبى الآن إنه لاهٍ بامرأته. ينبغى أن اسير - كما قررت لنفسى أكثر من مرة - إلى شقتى. ولكن كيف الخروج من هذا الظلام المقيم؟

ولما سرت صاعداً نحو الطريق الرئيسى حيث محطة القطار وطريق السيارات، لأدخل فى ونس الناس الساهرين، ورأيت دارنا الصغيرة - التى أقمنا فيها زمناً بعد أن نقلنا أبى من سكنى المقاعد - تظهر أمامى فجأة، ورأيت أمى تقف على

الباب.

وابتسمت لي، وقالت وهي تفتح ذراعيها: ما شاء الله لقد صرت رجلاً وتستطيع السهر حتى ساعة متأخرة من الليل.

قلت لها وأنا رافض لأن تعاملني كصبي: أنا يا أمي قطعت هذه الشوارع سبُعاً.

قالت بفرح حقيقي وهي تتأملني من رأسي إلى قدمي: ما شاء الله.. ما شاء الله... قل الحق لولا أننا في رمضان وأنت فرح بيقظة الناس ما قدرت على السهر حتى هذا الوقت.

قلت وأنا اريد أن اؤكد لها رباطة جأش: في رمضان أو غير رمضان الليل لا يعني لي شيئاً بالمرة.

قالت وهي تضمني إليها: إن كنت شجاعاً حقاً فاذهب لتبحث عن أخيك وأتي به قبل السحور.

قلت لها: أنتم تلاحقونني الليلة في كل مكان، وأنا اريد العودة إلى امرأتي فرفعتني بين يدبها وهي تنظر في عيني لترى شقاوة الأطفال التي أفتعلها: ما هذه المرأة التي تتحدث عنها؟ إن أخاك الكبير لا يجرؤ على التحدث مثلك. قلت وأنا اتملص منها: دعيني ارجوك.. سأرسل لك ابنك ولكن لا تنتظريني. وتركتها لادخل الشارع الجانبي وهي تصيح ورائي: يا ولد.. يا

ولد لابد وان تعود، أبوك هنا الليلة وسيسأل عنك.

وتذكرت تلك الخربة التى أجزع من ساكنيها، فما أن ينتهى جدار دارنا حتى أسرع بآخر العزم إلى شارع السوق الكبير حيث نور الفوانيس المضيئة فى دكاكين البرادعى وصانع الحصر والمكوجية والحلاقين والخياطين الساهرين ليالى رمضان حتى يمر المسحراتى، فيغلقون دكاكينهم، ويعودون إلى دورهم، فيسقط الشارع فى ظلام مؤقت يمزقه نور الفجر الوشيك.

وقبل أن اصل إلى نهاية الجدار رأيته يخرج من الخربة مقبلاً نحوى بسيره الحازم تسبقه صلصلة الأجراس المحيطة بساقيه، والسراويل القصيرة تخفق على الساقين، والرأس مندفع إلى الأمام، يطلق الشرر الذى يضيئ. واهتزت عينى من وميضه، وأوسعت له، فركنت بظهرى على الجدار، واقترب منى جداً، وتماسكت لأنى اعرف أنه لا يؤذى أحداً، يتخذ طريقه بتصميم لا ينحرف يميناً أو يساراً، يسير دائما فى منتصف الطريق، وحين حاذانى، اتجه برأسه فجأة وابتسم ابتسامة منكرة، اظهرت فماً أهتم، تندفع منه ألسنة النار، تشتعل فوق رأسه مدومة، ثم تنطفئ فى الحال، صرخت بأعلى صوتى، وظل فى طريقه دون أن يلتفت وراءه، ورأيت الرجال يجتمعون على أول الشارع، ينصتون للصراخ، فقلت لهم: ابعدوا عنى هذا العفريت.

وتقدم أحدهم فأخذنى من ذراعى وهو يسألنى: أى عفريت؟

قلت: ألم تره!! ذلك القزم.. لقد عبر من أمامى للتو.

وضحك الرجال والصبيان الذين يعملون معهم، وقالوا: وكيف تركوك تخرج وحيداً فى هذا الليل.

وسقونى شربة ماء باردة، ومن اضطرابى اندلق الماء على صدرى، وقلت : إننى ابحث عن أخى الكبير.

قالوا: إنه يجلسَ هناك مع صبى الخياط.

وقال أحدهم: صوت الماكينة لم ينبهه لصراخك.

عادوا إلى دكاكينهم المواربة الأبواب، وتقدمت نحو دكان الخياط.

كان أخى يجلس على كرسى منخفض يتابع صديقا له يمرر القماش تحت إبرة الماكينة، ويتناقلا حواراً هامساً، لا يريدا أن يصل إلى أذن الأسطى الذى يتربع خلف المنضدة يقيس القماش المفرود أمامه بمتر الخشب.

ولمحنى أخى فأقبل نحوى مبتسماً، وقال: تعال.

قلت له: أمى تنتظرك على الباب

قال: دعك منها.. اجلس معنا حتى نذهب إلى التوشيح فى المسجد.

وسألني وهو مغمور بالبهجة: هل سبق لك أن صعدت إلى المئذنة ليلاً؟

قلت: ولا نهارا.

وشدنى إلى جواره، وابتسم لى صديقه وهو يتابع عمله.

سيصير صبى الخياط هذا صاحبا لى، وسأتردد على دكانه فيما بعد، حيث أجلس إلى جانبه، ينشغل هو بعمله على الماكينة، وأميل أنا برأسي نحوه، لنتحادث خلسة، ويتابعنا الأسطى الجالس وراء المنضدة بوجهه الأحمر، ويبتسم من حين لآخر. ويقول: إسمعاني ما تهمسان به ربما افدتكما بنصائحي.

ويقول صبى الخياط: الأسطى عُقْر ولا تفوته فائته.

واقص عليه ما حدث في يومي، عن عودتي من مدرستي حيث اتناول غدائي، وأصلي الظهر، وأنام قيلولتي، وعن الأحلام التي أراها، وهذه النسوة الرائعات كالحور العين، يتبدين أمامي بمشاهد مغوية، يسرن بين أشجار الورد عاريات وعن هذه التي تشير إليَّ من بعيد، ولأني لا استجيب مخافة الله، تقبل نحوى كاشفة عن صدرها المرمرى، وتسكرني بقبلة انتشى لها وأنا اتلوى في فراشي. وحدثته عن هذه اللذة التي ادمنتها في قيلولتي، تأتي معي حين استدعى بعين الخيال احدى الجارات،

وابتدع فى الكشف عن محارم جسدها.

وسألنى: وتصلى بعد هذا؟

– أنا لا افوت فرضاً.

واستلقى بعيداً عن رأس الماكينة وراح يكركع حتى لفت انتباه الأسطى، وسألنى مندهشاً: تقول إنك تصلى بعدها!

– طبعاً.. فأنا استيقظ صفار الشمس وأخشى أن يفوتنى العصر.

وهمس فى أذنى بما لم اكن اعرفه..

وفيما بعد كلمته عن البنت التى تسكن الدار على ناصية الشارع، كيف اقف لها على بابنا حين تمر، فيخفق لها قلبى، وقلت له إنه كثيراً ما يحدث ذلك، واتساءل لماذا هذه البنت بالذات. ولماذا يبتسمٌ لى وجهها وهى عابرة، وتلقى النظرة الحيية، ولا أطيق المكوث، فاختفى وراء الضلفة، واتابعها خفية، وبودى لو لاحقتها وسرت معها فى الطريق، وانتظر عودتها، ليتكرر خجلى، ويتكرر ابتسامها الجميل.

وفى كل مرة ينصحنى صبى الخياط بأن اتقدم إليها وأحادثها، فلا استطيع.

وحين أملى علىَّ رسائله لمحبوبته، فعلت فعله، وكتبت رسالة

قصيرة القيتها في طريقها أثناء مرورها، ومالت عليها واختطفتها على عجل، ودستها في صدرها، وفي أيام لاحقة صحبني معه حيث يلتقي بمحبوبته ليلاً في مكان مهجور، وتجرأت فطلبت من البنت اللقاء، وجاءت متشجعة، ووقفت معها، لا انبث بحرف، وهي لم تكف عن الإبتسام، وشكوت له خيبتي، وقال: تشجع وقبلها من شفتيها. فقلت: هذا ما لا تطيقه نفسي. وقال: انتظر حتى نغلق الدكان، واحضر معي لقائي لاريك ما تفعل.

وذهبت معه حيث التقي بمحبوبته، ووقفت من بعيد أراقبه وهو يضمها إليه، وهي خاضعة مستسلمة، تبادله القبل، وتجرأت فطلبت اللقاء.

وبينما نحن واقفين في مكاننا المعهود، ملت فجأة على صدغها ولثمته فارتعشت، واسقطت يديها إلى جنبها، وازداد سواد عينيها بريقاً، وأمسكت باليدين المستسلمتين، وضربني قلبي بشدة، فتقدمت خطوة حتى لامست الصدر الناهد، ونام رأسها على كتفي، ورحت اتسمع لانتفاضات البدن الحبيب، ورفعت رأسها، وكانت عيناها مسبلتين، وتناولت الشفتين الخفاقتين، وسكرت من القبلة الطويلة.

حين قصصت عليه ما حدث قال: الآن أنت رجل حقيقي.

وقال: ربما تصير لك زوجة. قلت: لا افكر فى ذلك الآن.

واكد أنه لن يدع محبوبته تفلت من يده، لابد ستكون أماً لأبنائه المنتظرين، ولن ينتظر ليوافق عليه أهلها أو يرفضوه.

وفى الأيام اللاحقة صار أسطى كامل الأهلية، بمقدوره القيام بأعباء محل وحده، وساعده معلمه، أجَّر له الدكان المقابل، ومده بالعدة اللازمة، وحين تقدم للبنت رفضه أهلها. فجمعت هدومها فى صرة، ورحلت إليه فى داره، وعقد عليها بشهادة معلمه وبعض أهل الشارع من الصنيعية والحرفيين.

وسمعنا صوت الطبلة الكبيرة يتردد من بعيد، فترك صبى الخياط ما بيده، خرجت مع أخى نترقبه على باب الدكان، فرأينا الصبيان قد تركوا أعمالهم، وتجمعوا بانتظار «أبو راس» الطبال، كان يتدحرج هابطاً إلى الشارع، الطبلة على كرشه تصل إلى حد ذقنه، وهو يضرب بيديه من الجهتين، والصوت تهتز له البيوت الساكنه، واشتعل الرقص فى حلقة أغلقت على «أبو راس» الذى هجر إيقاع السحور، واشتغل على نقرة ونصف، واشتبكت أيادى الصبيان، وداروا حوله، وحل أحدهم شال عمامته، فبانت قرعته لامعة على نور كلوب الخياط. والتف الشال على خصر أحدهم، وانعقد كحزام. و«أبو راس» رفع يداً ليدارى رأسه العارى، ووقع باليد الأخرى على جهة واحدة، ثم

ترك الطبلة لواحد من الصبية، واقتعد هو الطوار المرتفع، وأخرج من عبه علبة السجائر واشعل واحدة، وخرج من الشوارع الفرعية أولاد صغار وبنات صغيرات صحبتهم أمهاتهم اللائى وقفن بعيداً فى ظلام الجدار يرقبن من بعيد، وامتدت أياديهن ليسقطن أغطية الرأس على الوجوه المبتهجة، فلا ترقبهن العين الغريبة، وظلت البنات متشبثات بهدوم الأمهات، والأولاد انطلقوا إلى الحلقة. واهتزت أجسامهم الصغيرة على الإيقاع، وتحرك تراب الشارع، وانعكس عليه شريط النور، وتقلبت ذراته فى اضطراب، تبين فى الشريط، وتختفى فى الظلام، وأنهى «أبو راس» سيجارته، فطلب الطبلة. وقال له الأولاد: دعنا نرقص قليلاً..

ولكنه أبى وقال بحسم: ورائى شغل كثير.. والفجر اقترب.

فخلع الولد حزام الطبلة عن عنقه، وأعادها الرجل إلى كرشه، ولما تذكر عرى رأسه، طالبهم بالشال فحله الولد عن خصره، ولفه على رأس الرجل الذى عاود ضبط إيقاعه على لحن السحور، وانطلق من بقعة النور إلى ظلام الشارع جهة جامع الحى، وانفضت الحلقة، وعاد الأولاد إلى أمهاتهم، وعاد الصبيان إلى دكاكينهم، وهدأ الشارع من جديد، وكان صوت الطبلة يُسمع من وقت لآخر عبر المسافات البعيدة.

وأنهى صبى الخياط ما بيده، وقال للأسطى: أنا ذاهب إلى الجامع. وسأله الأسطى: هل أنهيت ما بيدك؟

قال: لا ورائى ولا قدامى.

وسار ثلاثتنا إلى الجامع، ثم لحق بنا بعض الصبيان فى الموعد المحدد. كان الباب الكبير مغلقاً، أما باب الميضة فكان مفتوحاً على آخره فدخلنا منه.

وكانت المصلى الصغيرة الملحقة بالميضة مضاءة بفانوس يتدلى سلكه من السقف، وكان النعش مركوناً على جنب. وماء صنابير المراحيض يساقط قطرات على الأرضية كذا صنابير الميضة.

فأمسكت بجلباب أخى، وعبرنا السور الصغير، وتقدم صبى الخياط إلى الباب الملحق بصحن الجامع، ونظراتى لا تفارق جرم النعش الواقف على ناحية كجمل يجتر.

ودخلنا ظلام الصحن فى صف نمسك أذيال الجلاليب، وسمعت أحدهم يقول: هنا تبدأ الدرجات.. ارفعوا أرجلكم بحذر فالمئذنة ضيقة والسلم دائرى.

وتقدمت مبهوراً وأنا التصق بأخى الذى لم اسمع له صوتاً، وتتالت علينا درجات كثيرة حتى اخترقنا سقف السماء، ثم بدا

ضوء خفيف من فرجة صغيرة، وسمعت صوت صبى الخياط: وصلنا.

وتوزعنا فى دائرة المئذنة الضيقة، وقال واحد من الصبيان: انتظروا حتى نلتقط أنفاسنا.

وراحت عينى تتابع دور الحى، ورأيت نار الفاخورة متقدة عن بعد، وقلت لأخى: فاخورة «برهم» لم تزل مشتعلة.

وسألنى: هل تقدر أن تحدد دارنا من هنا؟

ودرت بعينى فى المكان، النار تحدد الفاخورة، إذن هذا هو الشارع، وهذا هو سور الدار الكبيرة، ورأيت الحوشين معاً، وعرفت أن كتلة الظلام الكثيفة هناك هى أشجار التوت فى القراندة، وهذه هى دار زاهية فى الشارع الجانبى، وإلى جوارها دارنا الصغيرة، من زجاجها ينبعث ضوء لمبة الجاز، واشرت بأصبعى فى لهفة: ها هى ذى هناك.. أأنادى على أمى؟

قال: لا.. ستتعرف على أصواتنا.

- ولكنها لا تعرف أننى معكم الليلة.

- دعك من أمور العيال.

وأمر صبى الخياط بأن نتهيأ للتوشيح، وكنت لا احفظ بعد، وقلت: فى نفسى سأنتظر حتى أتعلم من الكبار ثم أضم صوتى

إلى صوتهم، وانطلقوا معاً: لا أوحش الله منك يا شهر الصيام.

ورأيت وهج الفاخورة يخبو قليلا قليلا، وتعرفت على شبح أمين الأعمى يترك مكانه وسمعت صوته يحادث دبابه، وقلت: فلأتابع ذلك القزم ربما رأيته يسعى هناك بين الشوارع، ورأيت شراراً صغيراً يندفع من بؤرتين ثم ينتشر حول جسد لا يكف عن النمو والإنكماش، وحين تعوّد نظرى على الظلام اتضحت البيوت وبانت حدودها، ورأيت زاهية تقف وسط الشارع، تشير إلينا تصرخ بكلمات لا نسمعها بوضوح، وبعد فترة تجاهلت وجودنا، وبدأت تحاول ضبط رقصاتها على نغم أصواتنا وأضيئت نوافذ الدور بتتابع، وانبثقت نافذة محبوبتى كنوارة تتفتح وشعرت بأن أهل الحى يقومون من رقاد عميق، والأصوات بدأت تُسمع من هنا وهناك، وسمعت بكاء الأطفال، وصوت الأمهات يحاولن اسكاتهم وسمعت صوت كبس وابورات الجاز وأطعمة تطش فى زيت مقدوح وتكسير الخبز وأفواه تلوك الطعام ورشفات الشفاة تحتسى مشروباً سخناً وخوار دواب وثغاء أغنام وجعجعة جمال ونهيق حمير وشقشقة طيور كانت نائمة على الشجر القريب. ورأيت الأفق الشرقى يشتعل بالنار ورأيت كأنما أمين الأعمى فوق المئذنة يردد: سبحان من تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من كان عرشه على الماء.

ورأيت دخان الفاخورة مكبوتاً بداخلها والفخّار يتقد حمرة.. كانت مطفأة. وكان الفخّار النى مصفوفاً على الحصى ينتظر دوره فى الحريق، وكان الدولاب تحت عشة الخوص عليه بقايا طين جاف وماء الحوض بجواره غامض وترسب فى الطمى الذى أُذيب من يد العاملين بعد توقف العمل وتأكدت بأنهم هناك بصحن الجامع منتظرين أن ينهى أمين أذانه ليصطفوا خلف الإمام ليقضوا صلاة الفجر. وأنا فى مكانى اقف بين دور حجرية بزغت فجأة مع أعمدة الكهرباء ورأيت العمارة العالية محل دارنا الصغيرة والدار الكبيرة التى قُسّمت بين الأبناء يرتفع على أرضها عمارات الغرباء الذين اشتروا من الورثة أنصبتهم. وعلى امتداد الصف الذى تشغله الفاخورة بيوت كثيرة مؤجرة لأناس هبطوا البلد فى الزمن الأخير، تبرز على شرفات البيوت لافتات لأطباء ومحامين وبيوت خبرة هندسية. وسمعت دبيب أقدامى على أسفلت الشارع متجهاً إلى بيتى، وكانت سيقانى لا تسعفانى من كثرة الوقوف، وضربت قدمى فى الأرض لأنشط دماءها المتكاسلة، وتحركت ببطء صاعداً إلى شارع المحطة ورأيت البوابة الحديدية نائمة لتحجز الطريق لقطار الخامسة المقبل من جهة العاصمة، كان باعة الفاكهة يطفئون أنوار مصابيحهم، ويفتحون الإذاعات على قرآن الصبح،

وبائع الجرائد وقف أمام عربة التوزيع يستلم الصحف والمجلات والزبائن العائدون من صلاة الفجر يقفون بانتظار الحصول على الصحيفة الأولى، وأصوات الوابورات تضج تحت صوانى الزيت المغلى، وصبية موقف السيارات يقفون تحت المظلة يدلقون الماء من الدلاء ويدعكون سطوح العربات بالفوط الصفراء، والمنادى اتخذ له مكانا على مفترق الطرق. ورفع عقيرته بصوت رخو: مصر.. مصر.

ومررت من بين الجميع متشبعاً ببهجة النور، ولما قامت البوابة الحديدية، قطعت القضبان بالعرض لاهبط إلى الشارع الذى يصلنى بالحى الآخر.

مدينة صغيرة تحت الأرض

رأيتنى مع صـديقى، نصـعـد طرقاً ملتوية فى مـدينة من القمائن المطفأة والمفتوحة أفواهها على جدران أكلتها النيران، وتبدو من بعيد كأنها محماة، رغم إحساسى بفراغها، ورأيتنى أجلس مـعـه على مصطبة طينيـة تظللها عـيدان من القـصب والخوص، وتحملها أعمدة من الخيـزران، وكنت أرى على بعد شبح مدينة كبيرة تشملها سحائب من الغبار مما يجعلها متلاشية كأنها خط الأفق فى لوحة من الفن الحديث، وكنت أكاد أسمع لها ضجيجا مكبوتاً كدفعات وابور طحين يعلن عن نفسه ولكنه لا يبين، وكانت تلمع على زجاج عمائرها المرتفعة ومضات شمس كالحة، لا تظهر فى السماء أمامى، ولكنها فى مكان ما خفى.

قـال صـديقى: ها أنت ترانى لا أميل للمـرور من بين هذه المقابر منذ دفن فيها ولدى الوحيد.

وكنت أستشعر ذلك بينى وبين نفسى، ولا أرى داعيا لتكرار الجملة التى أعرفها جيدا، لأنى سمعتها أكثر من مرة، ولكنه لا يمل تكرارها.

وكنت أضمر محاولة المرور بين المقابر التى يخشاها، على أن

يكون بصحبتي، لأؤكد له أن إحساسه به مجرد وهم، وبالعادة يستطيع النسيان.

وخرج لنا رجل من ظلام الباب، ومال برأسه إلى الأرض بخضوع، قلنا له: نريد أن نشرب الحلبة الحصى.

فأشار بأصبعه الكبير على عينيه، ومال برأسه مرة أخرى، وعاد بظهره، ثم هيئ لى أنه حملق فىّ بشدة، وأنى استشعرت العداء فى عينيه الجاحظتين، وقبل أن أخبط صديقى فى جنبه لينتبه إلى سحنة الرجل المفاجئة رأيته كأنما استحال إلى هيكل من خشب قديم، تهدلت عنه ثيابه المرقعة، وبدا السوس متهالكا على أنحاء وجهه، وظل واقفا بجمود، وظلت بسمته الشريرة على ثباتها ورأيت صديقى يقوم إليه ليعيد تذكيره بطلباتنا، ولكنه لم يتحرك، فما إن لمسه بأصبعه حتى سقط، فخرجت علينا رءوس كثيرة من ظلمة الخص الرطب، على نفس شاكلة الرجل، وبذات الملامح، فتركنا المكان، ونحن نقذفهم بالطوب، والأفواه المتسعة تتحرك بنشاط، دون أن نسمع منها كلاما، ولكننى كنت أعرف أنها تسبنا.

ورأيتنى أنزل مع صديقى التل المرتفع ثم نصعد بين القمائن التى تبدو مهجورة منذ عهد بعيد، والفخار كان مصفوفا خارج جدرانها، تتسلقه حشرات بدائية ضخمة الأجرام تنظر إلينا كلما

دنونا بشراسة وعداء مستحكم.

ولمحنا هذا الثوب الأزرق يضم بدنا لينا يمشي بتؤده ودلال، وكان ينسدل على الثوب من الخلف غطاء رأس أسود، كنا نشعر أن صاحبة الثوب تحس بوجودنا، وسرنا وراءها بحذر، وفجأة التفتت المرأة إلى الخلف بابتسامة ودود فيها دعوة وترحيب، واقتربت منها واخرجت من جوفي صوتا كأنه السؤال عن كيفية الخروج من متاهة هذه البقعة، وأشارت بيد بيضاء ممتلئة توسوس فيها أساور ذهبية على هيئة ثعابين، ولكننا في الحقيقة كنا نريد الخروج من هذه اللحظة بالذات، بل أقول إنني تمنيت لو أختفي صديقي بطريقة ما لأختلي بالمرأة، وهي كما أحس من دلعها وليونة حركتها أنها امرأة سهلة، وما ظهرت في هذه البقعة المهجورة إلا لهذا الغرض، ونظر إليّ صديقي فرأيت الشهوة تطفر من عينيه، وإن حاول ضبطها بملاطفة مبالغ فيها ورأيتني أغار منه، خاصة بعد أن تشجع فأمسك بيدها، وأدارها إلى الجهة الأخرى، ليدخل بها فوهة إحدى القمائن.

وكنت كأنني اختفيت لسبب ما، ثم ظهرت مرة أخرى وأنا أطل عن عين القمينة لأجد صديقي ينام على صدر المرأة، ويسح الدمع السخين، وينتفض بدنه كله وهو يقول لها: لم أقدر أن أدفنه بيدي هاتين، لقد جبنت وتركت الناس الأغراب يقومون

بذلك، بينما اكتفيت بالمكوث فى غرفتى، لأضرب رأسى بالحائط، وأبكى.

وكانت المرأة تداعب شعره بحنان، والتفتت إلىّ، فرفعت رأسه بعيدا عنها، ونبهته لوجودى، وقامت توارى عريها، وتعود إلى ارتداء ثوبها الذى اتسخ بتراب الحريق.

وعادت لتهدهده من جديد وتقول: تعال معى.. فهناك أعلى هذا التل زوجى، وسأقص عليه قصتك، ربما يجد حلا، ولا أجزم لك بأنه سيعيده إليك فى وقت قريب، حقا هو يصنع الفخار طول اليوم، ولكن ما باليد حيلة، وسأوصى عليك عنده.

وسحبته من يده، وسرت أنا وراءهما ألوك غربة مفاجئة، ولكن دون حقد، ولا غيره، بمشاعر محايدة تماما، لا عطفاً لمشكلة الصديق التى صرت أراها خرافة، وحكاية ممطوطة يبتز بها الناس، ويبرز بها عجزه، ودخلنا (عشة) حوائطها من أوان فخارية قديمة ملصقة بقطع من الطين، وسقفها الساقط شواشيه إلى أسفل، يدفق نورا لشمس قوية طلت مرة أخرى وكأن الزمان يعود من غروب إلى شروق، فالشمس تركت أفقها الباهت، وكانت على وشك السقوط وعلى غير العادة آثرت البقاء حتى ينهى صديقى موضوعه، ونظرت - الشمس - بتطفل شديد من طاقة السقف ترقبه واقفا أمام الرجل الذى يبدو كأنه لم ينتبه

لقدومنا بعد، فقد كان مستغرقا مع كتلة الطين الأسطوانية التى تدور أمامه فوق دولاب الفخار.

ورفعت المرأة رأس زوجها. وأفاق من غفوته، ولكن بينى وبين نفسى شعرت بأن الرجل كان ميتا إلى أن دخلنا فبعث من جديد، وبدأ الدولاب يدور، وتستيقظ كتلة الطين بين يديه، وتغرد راقصة بين أصابعه التى دبت فيها الحياة، وتتأود قطعة الطين وتتشكل فى تأودها قلة أو إبريقاً أو زهرية.

ومالت المرأة على أذن الرجل الذى استحال إلى كهل، وتدلت من أصداغه لحية شهباء التصقت شعيراتها بالطينة الدائرة، وهز رأسه مرتين أو ثلاث، ورفع إحدى يديه ليرش الماء على قطعة الطين قبل أن تجف، ولمسها بأصبعه، فراحت تتشكل على هيئة وجه لطفل رضيع يبتسم، وانكفأ عليها صديقى صارخاً: هو.. هو... اننى أريده.

ولكن حركة الرجل توقفت، كذلك الدولاب، وكتلة الطين صارت حجرا خشناً، وظلت اليد اليمنى للرجل مرفوعة إلى أعلى، وسبابته جمدت مشيرة إلى شىء ما.

ورأيتنى أبحث مع صديقى عن المرأة التى صحبتنا إلى المكان فلم نعثر لها على أثر، واستحالت أوانى الفخار المصفوفة

بالعشة التى انسحبت عنها الشمس إلى رءوس مبتورة تقهقة بسخرية، فهرعنا إلى الخارج.

ولمحنا طيف المرأة يمشى الهوينى بين القمائن، ويتلاشى، ويتلاشى صاعدا فى غبار الأفق الذى وقفت على حده - وراء عمائر المدينة - نصف شمس صفراء مترددة فى الذهاب.

ورأيتنى أهبط معه تلال القمائن لنصل إلى سفح ممتد، ونسير بين أطلال لجدران مهدمة، أحجارها قديمة راشحة، ولا تبين شيئاً من قسمات البيوت التى كانتها.

(وأشار هو بيده فى الاتجاه كأنه يعرف المدينة كأحد سكانها القدامى. وأشار إلى حفرة، وقال: هذا أحد آبارنا كنا نروى بمائه ظمأ إبلنا، وكما ترى لم نكن أبناء حضارة بناء، فقد جئنا إليكم من بيئة لاتعرف غير الخيام التى نرفعها من وبر الإبل وجلود الخراف، وبرغم قربنا من شواطئ النيل إلا أننا كنا نخشاه، وأمرنا أميرنا بألا ندنو منه، ولا نجتاز ماءه إلى شواطئ نجهلها، ففضل حفر الآبار كما نفعل فى صحرائنا.

وانحنى على قطع من الشقافة ملونة، وقال: هذا هو حطام آنيتنا، كنا قد جئنا فى جيشنا جنودا من غير نساء فكنا نحن الرجال نرفع الأوانى إلى الآبار، فتراها تحطمت منا جميعا،

لأننا لا نحسن مثل هذه الأعمال، حتى دالت لنا كل البلاد من شمالها إلى جنوبها، وتفرقت قبائلنا فى كل جهة، وجئنا بنسائنا، وتعودنا سكنى المدن والأرياف، وودعنا حياة الصحراء إلى غير رجعة.

وهجرنا مدينتنا هذه، وأقمنا بدلا منها عاصمة جديدة، أقمنا قصورها وقطائعها من أحجار صخرية تصمد للأيام، وهناك وراء هذه العمائر ترى مآذن مساجدنا القديمة، وترى الدور الأخرى التى حفظها لنا الزمن بينما تدهور حال هذه المدينة، ودمرتها حرائق النزاعات، ولم يبق منها غير ما ترى عيناك).

ورأيتنى أهبط معه سلما له درابزين حديدى أعلى الشارع الذى يضج بالسيارات، والقطارات وزحام الناس، حينما وصلنا نهاية السلم لم نعد نسمع شيئا البتة.

ورأيتنى معه وسط مدينة عتيقة، لها مبان على الطراز القديم، شوارعها ضيقة مخنوقة، تمتد شرفات منازلها، فتظل مساحة الشارع كلها، وتشتبك مع الشرفات المقابلة، والشوارع مبلطة بقطع من البازلت الأسود، وتقعد بنات فائرات بأثداء مترعة على عتبات دورها الصغيرة التى تبدو كأنها ديكور لمسرح يعرض نصاً من عصور سحيقة، وكنا نلمح فى آخر الزقاق عباءات لقساوسة يمشون لا يلوون على شئ، وكانت البنات ينظرن إلينا

برغبة مكبوتة كأنهن لم يرين رجالا من أهل الدنيا العلوية قط، وكنا نحس أننا سننجر إلى داخل إحدى هذه الغرف التى تطل منها أعمدة أسرة لها دوائر من الدانتلا، ونغتصب اغتصابا، فالنظرات الشرهة للبنات لم تدع مجالا للشك فى ذلك، فالعيون متنمرة ومشتعلة بشهوات مجنونة، والأيادى كأنها مخالب لحيوانات وحشية لا رادع لها.

لذنا إلى الجدران نبحث عن أقرب مخرج، وأسرعنا قليلا نستصرخ هذه العباءات السوداء التي تسير أمامنا، ولا نهتم بوجودنا، وكنا نسمع دبيب الأقدام يعلو ويرتفع، وتزداد هرولتنا، فيزداد اللهاث، ويرتفع الذعر إلى حلوقنا حتى كاد الصريخ ينفجر من شراييننا، واختفت العباءات السوداء كأن لم يكن لها وجود من قبل، واختفى الدبيب واللهاث، لأننا اقتربنا من ساحة ينفتح عليها باب ضخم لكنيسة صغيرة، كانت إحدى ضلف الباب محروقة من جنب، وعبرنا الحاجز الخشبى لندوس على فرش من فرو الغنم والماعز، وتضوع فى المكان فوح عطر لا أشمه إلا فى الجنازات.

وخرجت علينا عجوز من ركن ما، واقتربت منا، كانت سحنة وجهها الهادئ مطمئنة، ومالت علينا بتواضع محبب، وباركتنا بمسح كفيها على كاهلينا، واستدارت تبحث عن نعلينا، فأشرنا

إليها أن اطمئنى لقد خلعنا النعال خارج المكان الطاهر.

وأشارت إلينا لتقول: إنه من الأفضل أن ترفعا نعالكما معكما لأن المكان غير مأمون.

ودخلنا صحن المكان الواسع، كانت تنتصب على أركانه تماثيل المسيح والعذراء، وانعطفنا لندخل الحجرة التى يقف فيها المسيح مضيئا من جوانبه، وشعرنا برهبة المكان، ولكن حاولت تفادى نظرته إلىّ.

هل كانت وعيداً؟ لا أدرى. ولكنى أحسست أننى حين أتفاداها فلا خوف من شىء، ودرنا بالمكان دورتين لا ندرى ما نفعل به.

وعادت العجوز لتطل برأسها من الباب، وتقول: لا تحتارا إذا كان لديكما نذر أسقطاه فى هذا الصندوق.. والمسيح معكما.

ودفعت يدى فى جيبى فلم تعثر على شىء، كذلك فعل صديقى، ونظر كل منا إلى الآخر برعب، وشعرت للحظة بأن نحنحة خرجت من حلق التمثال الذى مال بظهره قليلا نحونا.

وفى حيرتنا تضاربت وجوهنا، ورحنا نلف المكان دائخين، حتى رأينا العجوز تدخل علينا وهى تسير على يديها وقدميها، وراحت تخمش فى سروايلنا، واستحال صوتها إلى مواء،

والتصقت بنا في عناد، وبدأ ظهرها يتقوس إلى أعلى، واندفعنا إلى الباب يمسك أحدنا بيد الآخر حتى وصلنا البراح، بعد أن ودعنا الدور الصغيرة والكنائس وراء ظهرينا لنستقبل شواهد القبور، كانت شواهد نظيفة مبنية بطوب أحمر صغير، وتسقط عليها أشجار مزدهرة بالخضرة الناصعة وينهال منها ثمار جهنمي أحمر خفيف، فينبت على ظهور الشواهد ورءوسها.

ورأتني أمشي معه بين هذه الصفوف نطالع أسماء الموتى الذين يرقدون وراء أبواب من الصاج مغلقة بقضبان حديدية صدئة عليها أقفال كبيرة سوداء معقود عليها قطع من القماش الملون.

وكنا نرى بعض الشواهد فارغة وأجوافها نظيفة غير مسكونة، ولكنا شعرنا ببهجة الخضرة ودسامة الظل وصفو الجو والروائح العطرة التي تنبعث من مصادر مجهولة، ونسمة لعوب راحت تتلاعب بأوراق جافة، وتصنع زوبعة صغيرة تدوّم حول قدمينا، وترفع الأوراق إلى ما تحت سراويلنا.

ورأيتني أطالع صور الموتى المعلقة فوق واجهة الشواهد، وكنت فيما بيني وبين نفسي أدهش لهذه العادة، وأقول إنني لم أر ذلك من قبل، كيف يتسنى للمرء استيعاب هذا الامر: أن يرى صورة لميت، لا يحجزه عن رؤيته سوى صفيحة رقيقة فيراه على

حقيقته عظاما نخرة وجماجم مفرغة من حواسها.

وقال صديقي وهو يشير إلى إحدى الصور: كم هي جميلة وبضة.. كان بإمكاننا قضاء ليلة جميلة معها.. لولا أنها اختفت.

وقربت بصري من الصورة فرأيت تلك المرأة التي ظهرت لنا بين القمائن ثم اختفت بعد أن عرفتنا بزوجها صانع الفخار.

ولم أكد أفرغ حتى سمعت صرخة صديقي المباغتة، وأشار إلى شاهد صغير يقبع إلى جوار المرأة، قال: ها هو.. ها هو إنني أراه.

ونظرت إلى الرضيع يضع أصبعه في فمه ويناغي نفسه في تلهية لا يعبأ فيها بأحد.

وانتبه الرضيع إلى وجودنا، فهلل مبتسما، ورفع يديه الصغيرتين إلى صديقي، وفز بجسمه إلى الأمام كأنما ينوي القيام.

الفارس وأنا فى غرفتى

برغم الليل المتأخر ظل المذياع يقول: إن الذئب صار حملاً.. وإن راعي الحملان سيمنحنا صوفها في مواسم البرد من كل عام.

وكنت ممدداً في عريي الكامل (وكان صوت الصرصار في دمي).

رأيت سقف الغرفة تحمله أعمدة الخشب، كما صارت الجدران الأربعة أعمدة من الخشب، قُفل الباب تضخم حتى ملأ الأرض. ملت لأدس وجهي بين ثدييها المنطلقتين. انفلت الدم حاراً من فتحتي الحلمة، نافورتين.

قلت: أجرب منطقة أخرى.

انغرست في الحلفاء كفي، نظرتهما، كانتا قدومين برأسين من حديد، ويدين من خشب. (جيفارا) صورة معلقة فوق السرير - وفي الضمير - بعيون حزينة. على الواجهة المقابلة خريطة كل الدنيا، خطوطها أفاع لا تكف عن الحركة والتلوي.

قلت: أهز بدني لعلي استعيد قوتي.

صوت الخشب المتحطم وصوت الصدأ المنهال، جربت أن أخلخلها بهزة لعلها تمنحني الحب القوي. ارتفعت - على

الفراش – نخلة عجفاء نام على جانبيها الجريد الذابل. عجبت: عنف الهزة لم يسقط ثمرة.

(وكان صوت الصرصار فى دمى، ونقيق الضفدع).

حاولت أن أجبر ذهنى على التفكير بترو، لأنى مازلت مصراً على الفعل، وددت أن أصل لرأسي. كان هناك، بجوار الأباجورة، بين الكتب المتراكمة . الأباجورة عجوز عمياء عارية، تبكى. مددت يدى لأستعيد الرأس، طرى غاصت فيه الأصابع حتى برزت من محجرى العينين. حزنت على فقدى عينى، وعزمت على ترويض نفسى على العمى. ثبّته فى مكانه، وتأكدت بأن الرأس فى وضعه الإلهى، برغم ذلك كان معكوسا ، بدليل أن عينىّ كانتا بين ورد الستائر الكبير، وبعيدتين عن وجهها الذى ينبغى أن يكون امامى. سعدت لمّا جاءتنى الفكرة. باقة ورد تُصلح ما بيننا، وتعيد فحولتى المفقودة، قبضت على الباقة. فاح عطرها.

قلت: هاك هدية لقائنا المحرم الحلال.

ماءت بفزع رأس القطة المخنوقة بيدى. بخوف مهول قذفتها على الأرض. رأيتها تطارد فئران غرفتى. فرحت. بذلك تخلو الغرفة من الفئران. عندما تأكدت أنها أكلتهم بجلدهم وعظمهم

ودمهم، رأيتهم يخرجون - جميعاً - من خلفيتها إلى الجحور.

(وكان صوت الصرصار في دمي، ونقيق الضفدع، وخمش الفئران).

في صمتي قلت: لا فائدة.

وحاولت أن استعيد التصاقي بها. أملت رأسها بالشعر الغزير على الوسادة، وفي اللحظة التي رسمت فيها القبلة الفاصلة، شاهدت الحمامة المنقوشة على طرف الوسادة تترك غصنها، وتلتقي بذكّرها. أرجأت القبلة، ورحت أتأملهما من خلف مقلتي. تناقرا بشوق، ثم نغّم في أذنيها همساً لطيفاً نشرت على اثره الريش الغض. دار حولها. هدل في خشونة حانية. رقدت على بطنها مخدرة. مطت رقبتها برأسها على الأرض. ركبها. في ثانية انتهى الأمر، وداخا في رقصة ثملة. حين انتهى ذلك حلقا في الهواء. اخترقا قضبان غرفتي الخشبية إلى الخارج.

استعدت نفسي. تقدمت بشفتي. سبقهما لسانُ النار. زكمتني رائحةُ حريق الجسد الإنساني. تحركت المنضدة من الركن البعيد كلبة جرباء تبرز أضلاعها وحدقتاها. تمسّحت بي. زعقت في وجهها: إمشي..

لم ترتد حتى قدمت إليها ساقي لقمة، ساد الغرفة هرس

العظم المتكسر. حين انتهت لحست جانبى شدقيها، ولعقت بقايا الدم المتقطر، ثم عادت إلى الركن منضدة ترقد تحت الصورة (فارس قديم يمتطى الفرس المطهم. رمحه مغروس فى صدر التنين، والتنين حى برغم الطعن والنزيف).

«جيفارا» انفرجت عيناه قليلاً. حلمى بالحريق فيها، بالتبخر، بالتوحد، بالرحلة الناعمة فى دمها المتوقد، مازال بارداً.

سحبت يدى إلى ما بين فخذى، ارتطمت بالقنفد المحاصر بالشوك. فى خفة نهضت، رقصت رقصة الحمائم. هدلت. أنامت رأسها برقبتها على الفراش. افرزت عطرها المتقطر فى الريش، الفائح فى دخان الشهوة. تهت بين غابات الريش المزدهر، حين عثرت على الطريق، وفى لحظة العودة، كان «جيفارا» قد هجر الصورة متجولاً – على الفرس المطهم – فى الخريطة، وكنت – أنا – تمساحاً يسبح فى النيل الأفريقى.

القسم الثانى

بئر الماء الساخن

ها هو الموعد قد أزف، ولم تأت بعد، وقلبى لا يطيق المكوث فى الظلام.

- ١ -

رأى أربعة من الصبية يأتون كقطيع صغير.وكان السور الحجرى قد تلاشى، ورفعت الأبواب التى تحجز هذه الساحة، وأضئ المكان فجأة بحزمة من نور، واختفت صناديق الحب، وعشة الفرن، واستعاد المكان حاله الأول، وهو - فى ركنه - طوى نفسه على نفسا ، ويرقب تحولات المكان، كتم أنفاسه، ورفع يده إلى صدره ليحد من الضربات.

ورأى الشعلة خلف قضبان حجرة العدة، وسمع أصوات الرجال تتعالى والأيادى وهى تمسك بيد الحديد، ودارت الآلة دون صوت، والقطيع الصغير كان يتابع الرجال من خلف النافذة، وحينما بدأ الماء الساخن يتدفق من الماسورة إلى البئر، اقترب منه الأولاد، وراحوا يضربونه بأيديهم الصغيرة، وتجرأ ولد منهم فخلع ثيابه، نظروا إليه بإعجاب وراقت لهم اللعبة، دار

الولد العارى نحو جدار الطاحونة، ورشه بماء البول، وفعل الأولاد الآخرون مثله، وبدوا يختبرون أعضاءهم الصغيرة باللمس، ودنوا من الماء الذى يشكل دائرة حول فوهة البئر، ناموا على ظهورهم وهم يرفرفون بأيديهم، فيتناثر الماء فى الجهات حتى ابتل الوجه برذاذ خفيف، مسحه بحذر، ثم اندفق رذاذ كثيف، انبثق من فوهة البئر، وشمل المكان جميعه حتى إن الغبار الناعم اهتاج، وأثار عاصفة ترابية أخفت أجسادهم عنه، حينما هبط الغبار، وانجلى المشهد. رآهم يحملقون فى البئر، ثم هرعوا فجأة تاركين ثيابهم، وكانوا قد صاروا ثلاثة.

لم أعد أرى شيئا ألبته.. وأنا أخاف الغريق، وهى لا تريد أن تأتى.

- ٢ -

رأى نخلة تنتصب فى المكان وشجرة توت يزدهر ثمارها فى غير موسمها. وشم أنفه رائحة النعناع والريحان تفوح من حوض الأرض المزروعة على البئر إلى جوار السور الواطئ للمصلى الطينية. وكان الكهل بلحيته الطويلة البيضاء يلهج لسانه بأوراد الفجر، عبر سور المصلى. واتجه إلى جذع

الشجرة، رفع جلبابه من أمام وأخرج ريحا مخنوقا، ثم قام إلى البئر، وراح ينزح الماء بيمينه إلى سوأتيه، بعدها شمر أكمام الجلباب، ومال بوجهه إلى الماء، وارتفع صوته بأدعية الوضوء، كان يود أن يدنو منه ليتملى سماحة وجهه. نادى عليه: جدّى... يا جدّى.. ولكن الرجل لم يلتفت إليه كأنما لم يسمع نداءه، قام يجفف وجهه بأطراف الجلباب، وسار باتجاه باب العدة، مر من أمامه مباشرة، ولم يهتز له جفن، نادى عليه بصوت خفيض: جدّى..

واختفى جسد الرجل، وبقى صوته يردد آيات القرآن، وقال لنفسه متحسرا: له العذر... لأنه مات قبل أن أولد.

هل كانت تخدعنى حين ضربت لى الموعد... فى هذا المكان!

- ٣ -

رأى النسوة يأتين نحو البئر، نظرن إلى المصلى، فوجدنها فارغة، انطلق منهن ضحك مغرد، وقلن هامسات: ذهب حمونا إلى الصلاة.

وبدأن فى رفع الجلابيب والقمصان، وتركنها على سور المصلى، وسرن عاريات إلى البئر، أرحن أردافهن الثقال فى البقعة الدافئة، وصرن ينزحن الماء بأكفهن إلى صدورهن، وتجرأت واحدة منهن، وهبطت إلى البئر، واختفى رأسها تماما، والأخريان حلتا ضفائر الشعر المبتل، وغطستا فى البئر معها، وهو - من مكانه الخفى - ينصت لهمسهن البهيج، ولحكاياتهن عن تلك الليلة، كانت كل واحدة منهن تفاخر الأخرى بفحولة زوجها . ثم خرجن من البئر، وهن يعصرن الماء عن عريهن، وينذرنه عن شعورهن، وارتدين هدومهن على البلل، واختفين قبل أن يؤذن للفجر.

ها قد أوفت بوعدها.. وجاءت فى اللحظة التى قررت فيها القيام.

- ٤ -

الباب الهش استجاب لجسمها وهى تمرق منه، كانت تبدو كطيف نورانى، يطير فى فضاء الحوش، لم يُسْمعْ لأقدامها صوت، وهى تدوس الأرض، ولم ينتفض الغبار لسيرها، وتزحزح قمر كان يختفى على سطح الدار، وتوسط المكان، وأقبل عليها،

لم يلمس يدها بعد، بل استغرقته صورتها المهتزة على الماء وهى ظلت على صمتها تنظر حيث ينظر، الصورة تهشمت على صفحة الماء، فصارت تبدو كراقصة مبتذلة، رفع كفه إلى عينه ليخفى الصورة المشوهة.

بعد برهة رفعها ليحتويها بين يديه..

كان القمر قد عاد إلى مكمنه، وصار ثوبها الأبيض الشفاف هو الضوء الوحيد فى المكان.

- تعالى إلى هناك. وأشار إلى صندوق الحب.

- تركتنى زمنا لأطياف الأوائل.

- تكلمى.

ومد يديه إلى ذراعيها، فاستشعر خشونة، فزع لها قلبه، ولكنه تماسك حتى لا يبدو نافرا منها.

ولما فرد ذراعيه عن آخرهما ليضمهما إليه، وجد أن جسمها لا نهائيا، ولا طاقة له باحتضانه، مال برأسه إلى صدرها ليكثف جهده المهدر، فلم يحتمل صدغه الأشواك المشرعة، أطلق يديه فى جسمها تبحث عن نعومة البدن، فصدتها بخشونة ذكورية، لما أفاق من هذا عاد لينظر إليها، وكان - القمر - قد أطل عليهما مرة أخرى، ودنا حتى صار سقفاً للمكان.

ورأى أنه يحتضن الفراغ، وما كاد يعود بظهره حتى رأى الجسد الذى وثب إلى الماء الساخن، ظل فترة يبقبق ويصنع رغاو فوارة على وجه الماء، ثم انطفأت الفقاقيع، وعاد كل شىء إلى سكون البداية.

مصباح الجاز

أفكاره فى هذا الليل الشائع خارج أسوار الدار تنتمى للعمر الحالى، وجسمه يتبع الزمن الأول، كان يرتدى منامة خفيفة، قماشها لامع وطرى ينساب على البدن الصغير، ويترجرج سروالها الفضفاض بين ساقيه، يرى نفسه - من خارجها - واقفا تحت الفسحة الخالية من الأشجار، ويرى يده تنقل طعاما - لا يشعر بمذاقه - من أطباق صفت على طاولة قديمة، وعينه كانت تجول ما بين دور الجيران المغلقة النوافذ والفسحة المضاءة بنور ابتسر من ساعات الغروب، لا يبين من الخارج غير واجهات الدور.

والإحساس الذى يمور بداخله هو الفرحة بالعودة المطمئنة.. يقع نظره على نعمة وهى فى سنواتها الأولى، أيام كانت تعيش فى بيت الأب، كانت مبتهجة بعودته، تجوم حوله وهى ممسكة أشياء غامضة على الصنبور تملأ آنية من الألمونيوم، وتمسح قطرات غير مرئية عن وجهها، وظلت تختفى داخل الدار ثم تعود.

(لماذا حين عدت ولجت هذه الدار بالذات؟ فكم من دار عشنا

فيها عبر مراحل العمر المختلفة!!).

(ولماذا اختفت هذه الأشجار، كان ظلها مرتع صبانا، نعلق على فروعها أرجوحتنا الصغيرة، وأين راحت هذه الأدوات التى لا يخلو منها ركن من أركان الفسحة، كنا نقيم بها بيوت الطفولة؟).

وسمع صراخ إسماعيل من الشارع، كان يهدد إذا تقاعس فى تنفيذ ما طلبه (هذا ليس من عملى، هو المنوط به هذا الأمر).

واندفع يحادثه بكلام منضبط، لا خلل فيه، خشية الاندفاع العصبى تجاهه، وارتقى السور ليسمعه ما يريد، فرآه فى جلبابه الأبيض، بسحنته التى تنم عن رضا نفسى مؤقت، وهدده إسماعيل بأنه إذا لم يطع أوامره سيقتحم باب السور، ويهجم عليه ليذبحه.

ولكنه لم يخش تهديده، فهو يخفى له مفاجأة ستبدل انفعالاته، كان قد أرسل إليه طردا من البلاد التى قدم منها يحتوى على هدية رائعة (يبدو أنه تعثر فى الوصول إليه) وهو يعلم أن صندوق البريد مثبت فى أحد جوانب السور، ويكفى أن يمد يده إلى الخارج، فيسحب الطرد، ليريه إياه، ويثبت صدق شعوره الأخوى.

وواصل صراخه من وراء السور.

ونعمة التى كانت تتردد فى المكان، تركت ما بيدها، ووقفت إلى جواره لمناصرته.

ورآه يدفع باب السور، كان وجهه يحمل ملامح المكر التى ينكرها عليه، (هو الآن فى حال المناكفة، يريد أن يحد من وثوقي، ويظهر أننى لا أعنيه فى شىء.. قد تكون غضبته بسبب تأخرى عليه كثيرا، ويريد أن يظهر قلة احتياجه لى، أو يواجهنى باللوم والإدانة لخيانة أفكارى، لأننى تركت الوطن إلى بلاد لم أكن أكف عن انتقادها).

هم الآن فى غرفة مضاءة بنور مصباح الجاز.

وعلى غير توقع رأى أمه جالسة فى ركن، أشاحت بوجهها عنه، وكأنها لا تحفل بقدومه (بالتأكيد زعلانة لأنى لم أرسل إليها شيئا).

(وهل شىء ما يفيدها فى مقبرتها؟ إنه لا يمكن أن يلبى لها رغبة فى العالم الآخر، ولكنها الأم على كل حال تفرح برزق ابنها، وأنا كنت مقصراً معها طول حياتها بيننا، فهى منذ رحيل الوالد، لم تمد يدها لأحد منا، ظلت مكتفية بما تجود به الأرض، كم وددت لو أساعدها، ومحدودية راتبى لم تسعفنى فى أن

أعطيها من فائض الدخل الشحيح).

جلس إسماعيل على حصير الأرض، جلست نعمة إلى جواره، وتمدد هو على الكنبة، وقال: هذا هو الطرد.. فض أوراقه.

كانوا يتهامسون حتى لا تسمعهم الأم التى أسدلت طرحتها على وجهها، وفردت ساقيها أمامها، وأسندت رأسها على الحائط، لتبدو كأنها مستغرقة فى النوم، بينما هو يستشعر يقظتها.

نظر إسماعيل إلى الشىء بين الأوراق المفضوضة، وهو يواريه عن عين الأم، ثم هز رأسه ومط شفتيه دلالة على عدم الاقتناع، حدثته نعمة بصوت خفيض: شىء معقول، ثم إنه غير ملزم.

وأشار إليهما بأن يتحدثا بحيث تعجز الأم عن متابعتهما.

ورآها تتململ فى جلستها، وجمعت ساقا وأبقت الأخرى ممددة، وألقت عليه نظرة معاتبة، ثم انخلعت بجذعها إلى جهة الحائط، لا تريد النظر إليه.

وحرك إسماعيل يده تجاهه بحركة من الإبهام والسبابة، أفهمه بها أنه رغب فى شىء آخر، فقال له: ها أنت ترانى أعود

بلا شىء.

وأراد أن يشرح له ظروفه، كيف دبّر ثمن الهدية، ليظل على شعوره الودى، ولكنه آثر أن يحفظ سره لنفسه (هو لن يقتنع أبداً).

ونعمة اقتربت من أذنه استغرقا فى محادثة هامسة.

واتجهت عينه إلى ركن الأم، رآها تلتفت نحوه فجأة، رفعت طرحتها، وأرسلت بصقة، استطاع أن يتفادها، فالتصقت على حافة الكنبة، وظل الهمس يتردد بين الأخوين، والأم نهضت من جلستها، رفعت مصباح الجاز عن الرف، واتجهت به نحوهم، انتفض لقدومها، لأنه لا يعرف ما تريد، والهمس تلاشى، والوجوه انطمست ملامحها، حين نفخت الأم ذبالة المصباح.

قام عن الكنبة يتحسس الجدران، نادى على أخيه، فلم يجب.. استغاث بالأخت فلم يسمع لها صوتا (اختفى الجميع من الغرفة) اتجه نحو الباب مسددا يده أمامه، وكان يخشى أن يصادف جسد الأم، غير أنه لم يصطدم بشىء، لامست يده الضلفتين، وعندما رفع قدمه ليمرق من الباب هوى جسده فى بئر حفرت على عجل، أسفل العتبة بالضبط.

[illegible]

الريح.. الريح عبأت جلبابه، دومت حوله، رفعته وحطته، فكان يدفع بدنه الناحل إلى الأمام، قارب من ألواح خشبية عتيقة يلاطمه الموج العاتى هل ما يسمعه هدير الماء؟ أم ضجيج السوق؟ هو يخترق لحم النسوة، فى ذلك الضحى العاصف، انسل من فراشه. فى بيت ابنته الوحيدة، فقد جاءه على هيئة حمامة بيضاء مرفوفة تنقر زجاج النافذة، ولم يكن ليتصور أن يلقاه فى غير داره.

البنت كانت فى المطبخ مشغولة بطعام الغداء، للزوج والعيال، تردد مقاطع أغنية وهى تدير ظهرها للباب.

وقام بعافية مهر، يرتدى الجلباب على القميص الأبيض، وحبك الطاقية البيضاء وسحب النعل من تحت السرير، ودع علب الدواء وأنبوب «الجلوكوز» وإناء البول، وعدة الأسنان والشعاع المخنوق بزجاج الغرفة، هل الشارع هو الشارع؟ إنه يسير بذاكرة الأقدام، خيط غير مرئى، علق فى رقبته، ويجذبه بلطف، لأنه صاحب الجبروت، لأنه القوى الذى لا يرد، فهو يأخذ بيده، لا إرادة له بالمرة، فيما يقوم به الآن، مجرد استجابة للنداء، ويعبر الشارع الرئيسى، النسوة زنابير تطن، وحوارات حادة

بين البائع والشارى، وروائح الخضار المدهوكة بالأرض تنفذ إلى أنفه. هو يسير فى مدينة من الأشباح، تدنو السحن إلى مجال النظر، متضخمة، وبأفواه مشوهة، تطلق الطنين المكتوم، وهو لا يلوى على شيء، يده المعروقة سقطت بإرادة منها، لترفع طرف الجلباب، أيعرفه ذلك الشخص الذى يقف على طوار صالون الحلاقة؟ طلت عليه وجوهه المكرورة على الحوائط ورفع يداً إلى رأسه هُيئ له أنه يحيه، وسمع صوتا يخرج من جوفه، ومن جمله المكسورة، التقطت أذنه كلمة أو كلمتين: سلامتك... ألف.. وهيئ له أن وجها واحدا من وجوه الرجل اتجه نحوه، واقترب منه جدا، وشعر بكف الحلاق راسخة حارة تلتف حول عضده، فوكزها متذمرا، واندفع من فمه الفارغ هواء يقول: دعنى وشأنى.

ثم انحرف إلى الشارع المتفرع جهة اليمين وأحس أنه يميل كثيرا إلى الأمام، وأن الأرض تطوى تحت قدميه، فمال إلى الجدار، وركن عليه بيمناه، أجرام البيوت والكائنات التى تسعى من حوله تتبعج كأنه ينظر إلى مرآة مهشمة، وأصوات آلية مبتورة تخرج من فتحات الدور، أيكون هذا الصوت الذى غلب على الأصوات جميعا هو لمؤذن الحى؟ هذا الحد من الظل يتوافق مع آذان الظهر، ها هى الذاكرة الحية تستعاد، لأنه دخل مكان الألفة، ها هو بيته القديم، سيتأكد لما يفتح الباب، ويرى

مستطيل الشمس يلامس أول الكنبة، فيجزم لنفسه: أنه أذان الظهر.

وتذكر أن يده العرقانة تقبض على المفتاح، كيف عثر عليه؟ يذكر أنهم حين جاءوا ليرفعوه إلى هناك، لم يترك المفتاح من يده.

الآن هو داخل ردهة داره، شم أنفه رائحة العتمة والرطوبة، والعناكب التى نسجت خيوطها فى الأركان انتبهت للضوء وبدأت تتحرك فى بيوتها بحذر خرجت من حلقه سعلة لا إرادية، ووجد نفسه يقف أمام الصنبور، سال منه ماء، أصفر عطن، فغسل الكفين إلى الكوعين، وتنشق الماء ثلاثا، ومضمضه ثلاثا، ورفع الماء إلى زنده حتى المرفقين، ومسح منه على رأسه، ودعك بأصبعين فى الأذنين، واستند على الحائط ليرفع الساق اليمنى وأنزلها، ثم رفع الساق اليسرى.

ثم عاد بظهره إلى الكنبة، وسقط عليها وهو يلهث من الجهد، وثار حوله غبار خفيف.

فيما بعد سمع غناءها يأتيه من الداخل، فانتابته يقظة مضاعفة، وتلفت جهة الصوت، وقطع الغناء بسؤال: خلّصت يا حاجة؟

وسمعها ترد عليه: مسافة الصلاة يكون الأكل جاهز.

نكهة طعامها فاحت في المكان، وضجت الدار بصوت الوابور الذي يتداخل مع غنائها.

وأشرق الوجه الكهل بابتسامة وهو ينظر إلى فخذها تبين من باب المطبخ وتمكن منه الشوق إليها، فتحامل على نفسه لينظرها قبل الذهاب إلى الجامع، أراد أن يقوم غير أن الخيوط الكثيفة تمكنت منه، وتزايد حوله النسج فاستسلم لجلسته، وانفلت الرأس إلى الوراء، ليرتاح على المسند.

وجاءه القط الأسود من عتمة الداخل، ودنا من قدميه يلعق ماء الوضوء، ثم واتته قوته الحيوانية المخزونة، فوثب إلى حجره ليلعق الماء الذي يقطر من أصابع اليد الباردة.

المقهى أغلق أبوابه

ظل يرفع حقيبته ذات الخيوط الحريرية المتينة بيده، ويخوض في ماء المطر الذى انقطع للتو، ترك وراء ظهره قاعدة التمثال الفارغة، واتجه نحو المقهى الذى اعتاد فتح أبوابه طوال الليل.

لا أحد فى الميدان..

كان خاليا تماما من البشر والسيارات، وتشمله ظلمة معتمة، كحال مدينته حين ينقطع عنها التيار الكهربائى عند الغارات الجوية، لم تلمح عينه عمود نور، ولا مصباحاً من تلك المصابيح التى كان يجلس تحت نورها، على رصيف الميدان ليتبادل والأصدقاء الحديث فى السياسة والفن.

كانت أبواب المقهى مغلقة، ويلف الركن الواقع تجاهه ظلام لا يبين شيئا البتة.

رفع جسمه على السور الحديدى، خلع النعلين ليطلق لقدميه الحرية، بينما ظلت يده متشبثة بالحقيبة (منذ متى لم أخلع هذين النعلين؟).

هيئ له أنه لم يخلعهما منذ رحيله إلى تلك البلاد التى غادرها من ساعات قليلة. (لماذا غيروا مكان المطار، أذكر أنه كان بشرق المدينة، ولكنى دخلت الميدان من جهة الغرب). انمحت كل

الأحداث التى سبقت وجوده هنا، كل ما يدركه الآن أنه قادم من سفر بعيد، وكان يمنى النفس بقضاء بقية الليل على طوار المقهى بين الأصدقاء الذين فارقهم: ليعيد النشاط إلى ذهنه، وليوزع عليهم هذه الوريقات التى تضمها حقيبته.

وقفز إلى ذاكرته ذلك اليوم الذى واعده فيه صديق، قال: انتظرنى على مقهى الميدان الكبير الساعة السادسة تماما.

ولا يدرى لماذا تثبت لديه أن الموعد الذى يريده هو السادسة صباحا، ونزل من مسكنه مع الفجر، ركب أول أتوبيس، واندفس بين الجنود العائدين إلى وحداتهم العسكرية، وتناول فطيرة طازجة محلاة بالسكر الناعم من ذلك العجوز الذى يقف تحت مظلة الموقف.

ورفع نظره علـه يرى هذه المظلة التى تقع خلف الفندق الشهير، ولم ير غير مردة تتمدد بطولها ما بين حافة السماء وأرض الميدان. (هل هى السحب الشتائية القلقة أم هذه أشباح لحراس الليل؟).

وقدم إلى هذا المقهى فرأى رحيل زبون الليل وقدوم زبون الصباح اختار طاولة بجوار الباب ليرقب حركة الميدان من زجاج المدخل، ومرت السادسة والسابعة والثامنة، وملأ الصبح

ساحة الميدان بالحركة والضجيج، ولم يأت الصديق، وحين عاتبه، قال: أنت مجنون.. كنت أقصد السادسة مساء، أم رأيت أن نتم اللقاء قبل استيقاظ الحكومة من نومها؟

كان إحساسه بجلال العمل وسرية تبادل الأوراق تقتضى القيام مبكرا.

لمح دركيين يقبلان من جهة القاعدة المنصوبة كصنم جاهلى مهول - كانا - بزيهما الشتوى الثقيل خنفستين تزلقان من جدار أملس. (من دواعى السلامة القيام من هذا المكان، لأحاول البحث عن مقهى آخر).

ثبت يد الحقيبة على كتفه، واتجه إلى الشارع المقابل، ظل يتفادى بقع الماء المتناثرة مثل السائر فى حقل الألغام، ورأى إلى يمينه - على أول الشارع - رجلين يتحادثان بصوت هامس، وبدا أنهما لا يشعران بوجوده، ولا يعنيهما أمره، وقبل أن تحتوية ظلمة الشارع الذى يبدو كسرداب لا نهاية له، أحس أنه يسير على الأسفلت بقدمين عاريتين، (إذن فقد نسيت النعلين أمام المقهى!)

ولم يكن من المعقول أن يواصل المسير هكذا، وعسير على نفسه العودة من حيث أتى، فهو يخشى ريبة الدركيين، (لا مفر

من العودة).

وقرر البحث فى نفس الموضع الذى تركه منذ قليل، وجد أحد الدركيين يتأمل النعل بحذر، والآخر يتحسسه بعصا طويلة فى يده، دخل بينهما، وضبط النعلين فى قدميه. كانا يرقبانه بصمت، ولم يسأله أحدهما عما يفعل، واختفيا - فجأة - فى كتلة الظلام.

وآب إلى الشارع السردابى، وقبل أن تحتويه بناياته السامقة شلت حركته من أثر النور المبهر الذى تجمع على بدنه فى بؤرة مكثفة جدا. وخفق قلبه للنداء الحاسم: قف مكانك.

حوم بنظره فى شبه دائرة بحثا عن مصدر الصوت، فرأى شرطيين يقفان وسط الميدان، كانا بزى مختلف، أقرب إلى زى شرطة البلاد التى غادرها، ووجد نفسه يسير نحوهما بلا إرادة منه، كان عقله مشغولا بالتخلص من الحقيبة، (مع هؤلاء الأمر مختلف). ثم رآهما يسحبان الضوء عن بدنه، ويهتمان بأمر عنّ لهما، ورآهما يتجهان نحو طرف الميدان ليعاينا حادثا لم يكن فى الحسبان، (هل الهروب مجد فى هذه اللحظة؟) كانت تتنازعه الرغبة فى الانفلات منهما، أو على الأقل الاحتماء بجدار من تلك الجدران القائمة، أو ينتهز فرصة انشغالهما فيفر إلى أى مكان، (ربما لم يعد أمرى يعنيهما الآن.. قد تكون صيحتهما مجرد

عمل روتينى).

ودنا منهما بفعل مغناطيسية لا سيطرة له عليها، لاح لعينه زحام شديد من رجال الشرطة، يرتدون نفس الزى، و... ومضت فى عينه أضواء سيارات البوليس من أثر الومضات الفاضحة، ورأى نفرا منهم يتحلقون حول جسد ملقى على الأرض، وشملته رغبة قوية فى استطلاع الأمر. وانتصبت قاماتهم وهم يرفعون الجسد، كان لرجل يرتدى جلبابا بلدياً ممزقاً، والدم كان يسيل بغزارة من فروة رأسه ليغطى معظم الوجه، واليدان كانتا متهدلتان تبينان من بين المزق كأنما مبتوران ومعلقتان ببقية من جلد لا تحميهما من السقوط، برقت العينان فى الضوء المفاجئ، وحملقتا نحوه فى شبه استغاثة، وفى اللحظة التى عزم فيها على اقتحام حلقة رجال الشرطة، وجد نفسه مكبلاً من الخلف، وخلع أحد الضباط الحقيبة عن كتفه، فتح غلقها، وضرب بطاريته فى عمقها، ثم رفع عينه الكارهة فى وجهه: منشورات!!

- هدوم السفر.

فتفل على الأرض، وصرخ بعصبية: أخرس.

وانهالت عليه أيادٍ لا حصر لها.

(هذه هى النهاية.. إنهم لا يرحمون). (كتب علىّ ألا أعود

لبلادى أبدا) وألقى به فى صندوق السيارة..

أراد أن ينهض ليمكن أنفه من الهواء الحر، ذلك أنه شعر بالعرق ينز من جماع جسمه إثر حرارة مكثفة فى الحيز الضيق، ولم يسعفه جسده المرضوض، ولمس اللزوجة السائلة من وجهه، أراد أن يضع كفه فى مواجهة العينين ليتأكد إذا كان هذا الذى ينزفه دماً أم هو العرق الدبق، كان هذا السائل يغطى عينه.. و.. و.. ومضى النور بالخارج، فتمكن من رؤية السحن التى تحوطه، كان مغلولا بأطراف لحى أخطبوطية، وتأكد له أن ما لمس هو عصارة جسمه الطافحة علي الجلد بسبب الاحتضان الذى هوى به فى بحر من شعر.

انطفاء

(أ)

هى التى طلبت هذا اللقاء..

والآن تجلس أمـامـه على الطاولة، فى ذلك المحل الراقى فى وسط البلد.

وكـانت قـد دست له الورقة خلسـة حـتى لا يلحظهـا زمـلاء المكتب، طالعها، وفاجأه أنها تحدد موعداً للقاء.

اذن فهى قد فهمت ما يدور بداخله.

لم يكن من اليسير أن يفتح معها حواراً، فهى دون الأخريات يمكن الشك فى سلوكها، كان يعرف أنها معذبة فى حياتها الزوجية، وكانت تختلى بالمديرة لتعرض عليها عذاباتها، وهو يسترق السمع إليهما، ويراها حين تباغتها نوبة البكاء، ينتفض بدنهـا اللدن، وتسيطر عليه ارتعاشـة لا تسمح لها بالجلوس، فتقوم الزميلات إليها، ويُحطن بها، وتظل تنشج فى بكاء عصبى، يسيل معه كحل عينيها فى خيوط ممتدة حتى حواف شفتيها، حينئذ لا يستطيع المكوث فى المكتب، يغادر إلى الخارج، ويقف فى الطرقة بانتظار الإذن، ليعود إلى مكتبه، وينظر إليها، فيراها

وقد هدأت كثيرا، وتتملى وجهه بحذر، وتصله رسالة عينها الحزينة.

في مرات قليلة استطاعا أن يختليا.

حين يتاح للزملاء ترك المكتب إلى الصراف، أو حين يذهب إلى عمله مبكرا، فيجدها وحيدة، يدور بينهما حوار سريع لاهث، كأنما يريدا أن يقولا كل شيء مرة واحدة، قبل أن يقتحمهما الآخرون.

وقد يلقاها صدفة، أو عمداً في الممشى بين بنايات المكان، وربما صادفها في الشارع عند قدومها في الصباح، يتبادلان كلمات سريعة خاطفة ثم يدخلان من البوابة، فيصمتان تماما، ويبديان سحناً متحفظة.

وفي هذه اللقاءات القليلة حدثته عن حياتها مع زوجها، وتيقن بأنها تحمل في طيات نفسها روحا قلقة متمردة، لا ترضى بالحياة البسيطة، فهي تظن أن حظها التعس هو الذي أوقعها في حبائل هذا الرجل، فهو كالآخرين، لا يتميز بشيء خاص، ولا يمتلك موهبة ملفتة، وهي كانت تود لو ترتبط برجل مجنون، يصحبها إلى الأماكن الفخيمة، ويزور معها المدن البعيدة، ويحقق لها طموح حياتها في الملبس والزينة والسكن الراقي، ولكنها

أُجبرت على الحياة مع هذا الرجل العادى، لا شيء فى حياته غير العمل، وهو عاجز عن اثارة خيالها، وغير قادر على العيش فى دنيا الأحلام التى لا تفارقها أبدا.

قالت فى الورقة «انك الرجل الذى حلمت به».

وهو سعد بهذا، فقد حان أن يغير نمط أيامه الفارغة التى يقضيها ما بين المكتب والشقة التى استأجرها فى حى من تلك الأحياء الناتئة فى جسد المدينة الكبيرة.

وكان قد خبر تصرفاتها، وعرف أى نوع من النساء هى، وغذى فيها تلك الأحلام الضائعة، وجسد لها شخصية الرجل الذى تفتقده، كانت عصية أول الأمر، لا تبدى له نظرات خاصة، ولكنه أصر على المرا سلة، فكان يختلق الحوار مع الزميلات، ويقص عليهن طرفا من حياته خارج العمل، ليبدو أمامهن وكأنه ذلك الصعلوك الذى ينطلق فى حياة حرة، لا ضابط لها، فظهيرته يقضيها فى التنقل بين المقاهى، ويمضى الليل في الحانات، ولا يعود إلى شقته - كل ليلة - إلا وقد انبلج الصبح.

كل يوم يضيف حكاية مثيرة، ويرقبها، ويجدها تنصت بشغف، ويسمع طقطقة شفتيها، والتنهيدة الحارة التى تنفثها من صدرها.

وتعليقها فى جملة تحمل كل معانى الحسرة: أما نحن فننام بعد العشاء كالدجاج، ثم انتبه لالتفاتاتها المغايرة، صارت تقبل عليه ببشاشة محببة، وحين يرفع وجهه عن أوراقه تدوخه بنظراتها الملتاعة، ويبتسم لها، وترد بابتسامة لطيفة فيها دعوة للصداقة والمودة.

وتطورت الأمور أكثر، فقد انتاب كليهما الاحساس بأنهما كائنان مختلفان، وأنهما مضطران للعمل فى مكان لا يليق بهما، ولا تنقصهما غير الأجنحة التى تسمح لهما بالتحليق عاليا فى سماوات لا نهائية.

ولم يعد فى مقدوره تحمل تلك الشحنات العاطفية اللاهبة، وهى لم تعد تتصرف بتلقائية تجاهه، وشعرا بحصار الزملاء، فقد لمحوا - أكثر من مرة - بما يشير لتقاربهما، وانقضى الزمن الذى اتاح له التعامل معها بحرية، ولم يستطع أن يحسم الأمر، فهو يريد منها أن تخطو الخطوة الأولى.. وترك العلاقة تنضج وحدها.

وفى بعض الأحيان كان يستشعر أنها تفتعل الاحتكاك به، فربما دخل من باب المكتب، فيفاجأ بوجودها أمامه، فيصطدم بها، تطلق آهه الاندهاش المخزونة، وأحس أن كليهما يخشى لحظة الانفجار، وأصر على مزيد من الانضباط، لابد وأن تخطو

هى خطوتها الأولى وعليه أن يصبر.

وها هى الثمرة قد نضجت، وسقطت وحدها من شجرتها، حتى واتاها موسمها.

طوى الورقة بحرص بعد أن قرأها، وأخفاها فى جيبه، ورأى عين الزميلة المثبتة عليه، ولم يحفل بها.

المكان محدد، وكذا الزمان.

(ب)

اذن هى التى اختارت..

وها هو يجلس معها على الطاولة..

فاجأته بتسريحة شعرها الهائشة، وثوب السهرة الميثوث على قماشه قطع من الترتر البراق، وأزعجه أنها صحبت معها ولدها الصغير الذى اقترب منه بعد دخولهما من باب المحل، اشارت إليه، وقالت: عمو.. يا عمرو.

كان يريدها وحدها، وهى حين شعرت بأنه لم يرغب فى وجود الولد، بررت ذلك بأنها لم تستطع تركه فى البيت وحده، فأبوه يذهب إلى العمل الآخر، ولا يعود قبل العاشرة، ولم تفكر فى تركه مع جدته حتى لا تعرض نفسها للسؤال عن سبب خروجها

بهذه الملابس الملفتة.

تمسّح به الولد، ووضع يده الصغيرة على فخذه، وقال: جيلاتي يا عمو.

– حاضر.. سأطلب لك كل ما تريد.

– وبيبس.

– عمرو.. عيب.

وأرادت أن تشده إليها غير أن الولد خلع يده منها ولجأ إليه، مال بوجهه على فخذه، فراح يسرح يده في شعره الناعم، فاستنام الولد لحركاته بوداعة.

وشعر بدبيب النمل في جسده.

بعد أن وضع الجرسون الجيلاتي وزجاجات البيبسي، انشغل عمرو بكأسه، ظل واقفا تجاه الطاولة ينقل الملعقة من الكأس إلى فمه، ودخلا هما في حوارهما الخاص.

كانت لا تكف عن اطلاق التنهدات وهي تبث لواعجها.

سألها عن زوجها، وحياتها معه، ما هي المشكلة بالضبط؟

قالت إنها أحبته – في البداية – كما لم تحب امرأة رجلا قط، وسرعان ما اكتشفت أنه مجرد حيوان، يأكل، ويقضي حاجته، ويمارس الجنس بروتينية مقرفة، وقالت إنك لن تصدقني

حين أقول لك إنه صار لا يقربني الأيام الأخيرة، وإذا حدث ذلك - وقليل ما يحدث - يفعله دون حماس.

- فاهم.. فاهم.

أدهشه أنها تتكلم بهذه الصراحة وبقليل من التحفظ والافتعال.

وسال الجيلاتي على ملابس عمرو، وسقطت منه قطع صغيرة على الأرض، فرفعت يدها وصفعته على وجهه: تعال هنا لأطعمك.

ورفض الولد الذهاب إليها، وتقلب على الأرض، وهو يطلق العويل، فقام إليه ليرفعه على ساقه، وليهدئ من روعه حتى تنحسر تلك النظرات المزعجة التي وجهت إليهم من زبائن المحل، وراح يهدهد الولد، ويمسك له الكأس، وبدأ يطعمه بقطع يرفعها على حافة الملعقة، واستجاب له الولد وهدأ جسده تماما.

وعاده الدبيب من جديد..

وسقطت يد الولد على حين غفلة حتى لامسته، فابتسم الصغير، ووجه كلامه إلى أمه: عمو..

وزحزحه إلى أطراف الساقين، وانهمك في لملمة نفسه من أسفل. ولمح رعشة عينيها، وخشي أن تكون فهمت ما يعنيه

الولد.

وأخرجت منديلا ورقيا لتمسح به حول شفتيها، كانت ترفع المنديل أمام عينيها لتلحظ آثار «الروج» وتعض على أسنانها، وتخرج لسانها الوردى لتضبط به دهان الشفايف.

ومرة أخرى استعادت حالتها الأولى.

وأذهله أنها تحدثت عنه، كيف لفت نظرها منذ قدومه للعمل..

وقالت أنه الرجل الذى تود الارتباط به.

وقـالت لا يهم أن يكون الارتبـاط بالزواج، بل يظلا على حالهما، تكتب إليه، ويكتب إليها، ويلتقيان لبعض الوقت فى مثل هذه الأماكن، حب روحانى يعنى. أم لا يعجبك هذا؟

وأُخذ بالسؤال، وأراد أن يشرح لها نظريته فى الحب، وأن يحادثها عن الكتاب الذى طالعه وتقوم فكرته الأساسية على تفنيد مسألة الحب الروحانى هذه، فللحب دوما أساس مادى، هو الاتصال..

– اعرف.. اعرف.

وخشى موافقتها على ذلك، فهو لا يستطيع مصاحبتها إلى جحره الذى يقيم فيه كفأر الأرض الشراقى.

أحس ببلل على سرواله أسفل مقعدة الولد، وقال متوددا:

فعلتها يا جميل.

انزعجت هى وقامت من مكانها، ومدت يدها لتضربه، ولكنه أمسك به.

- أرجوك..

- تعال لأغير لك.

- دعينى من فضلك افعل ذلك.

ونزل بالولد عدة درجات أسفل المحل حيث وجد المراحيض تقبع ساكنة فى مكانها تحت الأرض، دخل به واحدا منها، وانزل له السروال، ثم قربه من العين، ولكنه أبّى، وقال له: خلاص عمو..

القسم الثالث

عيون سوداء فى العرس

- ١ -

جلسنا على مائدة فى حجرة خالية من الأثاث والفرش، لها نافذة تطل على ساحة ضاجة بالجيران والأقارب الذين تزاحموا فى الخارج تحت اللمبات الملونة، وكنا قد رأينا المسرح المعد والزينات المعلقة على أعمدة خشبية وباقتين من الورد موضوعتين فى الخلفية وراء ظهر الكرسيين المذهبين.

من المؤكد أنهم أعدوا هذه المائدة على عجل، وصفوا حولها عددا من الكراسى، جلست أنا على أحدها، ووجهى للباب، وإلى جوارى كان صديقى، وأمامنا كان يجلس مسعود والعريس.

لكزنى صديقى فى جنبى، وقال: انظر إلى مسعود إنه يأكل بنهم.

قلت له وأنا مشغول بالنظر إلى الباب لعلى ألمح مرة أخرى هاتين العينين اللتين رأيتهما يرقباننى: الرجل جائع.

فقال وهو يدفع ملعقة الرز فى فمه:

إنه لا يأكل غير اللحم.

– وماذا يعنى هذا؟

– معناه إنه ولد سيء النفس جداً.

ولم أحفل بما قاله، وعدت أرنو إلى الباب، فرأيت الوجه الجميل يطل من جديد، كانت صاحبة العينين قد وقفت وسط الصالة، في خفاء الظل، تثبت نظراتها عليّ، وخفق قلبى بشدة، وقلت فى نفسى: ها هى امرأة جميلة تقع فى غرامى، ربما رأتنى وأنا أدخل البيت فشغفتها حباً.

كانت العينان ضاحكتين، وصاحبة الوجه لم تلتفت لغيرى، وكنت أخشى أن يلحظ صديقى وأردت أن يكون هذا هو سرى الوحيد، فلا يطلع عليه أحد، حتى أنظر فى الأمر.

هززت لها رأسى بحذر، فابتسمت، ورفعت بأصبعها خصلة الشعر الساقطة على الجبهة، وتحركت بعيدا عن الظل، ثم اختفت، فحزنت لاختفائها.

كنت أنقل الملعقة شبه فارغة، وأنا هيمان أكتم أنفاسى المضطربة، فلحظتها تطل عليَّ من النافذة، وكان هذا يحتاج لجهد كبير، لأنه ينبغى عليَّ الالتفات يمنه فيواجهنى وجه مسعود المشغول بالطعام.

فعادت من تلقاء نفسها، لتقف فى مكانها لا تهتم لدفعات الخارجين والداخلين، كان جسمها ونصف وجهها فى الظل وعيناها - فقط - فى حزمة الضوء الساقطة عليها من مصباح لا يظهر، وازدادت الابتسامة على الوجه الألق.

- ٢ -

وكنت قد وقفت مع صديقى أمام بيت جديد تبدو حجارته الحمراء عارية من المحارة، وعبرنا أكداساً من الطوب والرمل، وقال صاحب البيت: مازلنا نستكمل بناء الدور الثانى.

دلفنا إلى مدخل البيت نرتقي درجاً من الأسمنت، وأشار صاحب البيت إلى باب شقة الدور الأرضى المغلقة.

- هذه هى شقتى التى سأدخل فيها مع عروسى الليلة.

وكان عنقه يبدو مخنوقاً فى البابيون الأسود، وفى نور لمبة صفراء يسقط على البسطة برق وجهه الأسمر، وشعره كان يبين لنا مدهوناً ومصفوفاً على ناحية.

وجلسنا على طاولة في غرفة وحيدة بالدور الثانى، كانت فتحات النوافذ فارغة من ضلفها، وفوق الطاولة بالضبط تتدلى

لمبة ضعيفة الضوء ولها مظلة تكثف شعاعها من بقعة دائرية، وكانت النسمة التى تداعب الشجر النائم على فتحات النوافذ تحرك اللمبة، فيهتز النور ويسيل من سطح الطاولة إلي سيقاننا.

قال العريس صاحب البيت: هنا التقى بالزملاء، ونطالع أوراقنا.

سأل صديقي: ولكن كيف تقرءون الورق على هذا النور الضعيف؟

قال العريس: يشتد النور فى ساعة متأخرة من الليل.

ورأيت خيالا يتمطى من سور السلم إلى أرض السطح، وبلغ طوله حداً وصل أن تدلى نصفه فى الشارع. كان الشاب صاحب الخيال طويلاً ونحيلاً، يمسك لفة بيده اليمنى، قال العريس: هذا مسعود.

سلم علينا الشاب، وشد كرسياً من زاوية، ثم انضم إلينا على الطاولة.

قال العريس: مسعود من المهتمين بمتابعة أوراقنا وهو فنان يعشق العزف على الناى.

ثم التفت إليه مبتهجا: الآن يا مسعود أنت معهما. اعزف لهما

مقطوعاتك الجميلة ثم اتبعونى إلى دار العروس:

وراح مسعود يبحلق فى وجهى وهو يفك اللفة، ليخرج ناياً قصيراً وغليظاً محفوراً عليه زخارف بنية، وعلى حوافه قطع فضية تبدو كخواتم اليد.

وقام العريس ليسوى حلة العرس السمراء الجديدة، وقال: أنتم لستم غرباء.. بعد أن يعزف لكما مسعود سيأتى بكما إلى العرس.

وبدأ مسعود ينفخ فى قصبته، وهو لا يرفع عينه عنى، ويخرج نحنحات حلقية ليهئ نفسه للعزف، وانتفخ جانب صدغه بالهواء، وانطلق الناى محلقاً مع نسمات الهواء، وكنت أنا وصديقى قد استرخينا على الكراسى، ورجعنا بظهورنا إلى الوراء نتابع العزف المتقن، ونصفق له بعد كل مقطوعة، وفى إحدى فترات الصمت قال لى جملة وحيدة: اننى أسمع باسمك من زمان.

- ٣ -

صعد مسعود إلى المسرح لينضم إلى الفرقة، يعزف على الناى، والراقصة أمامه تتأود وتتقلب على عريها ألوان خضراء

وحمراء وزرقاء، والعريس اتخذ مكانه على واحد من الكراسى المذهبة إلى جوار عروسه، بينما انتحيت مع صديقى جانباً نحتسى أكواباً من البيرة، وكنت أرقبها وهى فى الصف بين الفتيات اللائى يبرقن فى فساتين الأعراس وكانت تلقى علىَّ النظرة من حين لآخر، وداخ رأسى بفعل الشبع والارتواء حتى رأيت اللمبات الملونة تسيل على الرءوس، ولانت الأجسام المزدحمة وتداخلت فيما بينها فركنت ظهرى إلى الحائط مستسلماً لنشوة الشراب، فرأيتها تعبر من أمامى لتدخل من باب البيت، فهمست فى أذن صديقى: ثوانى.. فأنا محصور.

وتركته مندمجاً فى التصفيق للراقصة النشطة، ودخلت وراءها.

وجدتها تقف كأنها على انتظار، فاقتربت منها متشجعاً، وبدأت هى الكلام: ازيك.

فسألتها متعجباً: اتعرفيننى؟

قالت وهى تسلم يدها ليدى: نسيتنى!

– اظن أول مرة التقى بك الليلة.

قالت وهى تبتسم فيشرق وجهها من جديد: ادنو منى،

وتأملنى قليلاً حتى تتذكر. فدنوت وأنا أكبح رغبة نفسى فى لثمها، وعدت أحملق فى أشياء الدار الصامتة.

- آسف.

- انظر إلى هذه الشامة فى ذقنى.

فصرخت: معقول أنت!

قالت بود: يا غادر إلى هذا الحد؟

قلت معتذراً: لو أننى نسيتك ما خفق قلبى لمرآك.

قالت معاتبة: خفق لمرآى! أم أنك ظننتنى واحدة من إياهم أُغرمت بك؟

- لم أعشق غيرك أبداً

- المهم كيف حالك؟ ألا زلت تهتم بأمورك الغامضة؟

- كما ترين، ولكن كيف جئت إلى هنا؟

- أنا خطيبة مسعود وقد عزمنى على فرح صديقكما.

- مسعود! أول مرة التقى به اليوم.

- إنه فنان مثلك.. ومهتم بالسياسة.

- ابن حلال.

- دفعته إلى مثل هذه الأمور على الرغم منه.

- ليت الأيام تعود إلى الوراء.

- أنت تقول هذا يا رسول المستقبل.

وهممت أن أميل عليها لأقبلها، ذلك أن كل الذكريات نهضت من مكانها دفعة واحدة كأنما لم يمر على فراقنا غير ساعات، واستقبلت يدى بحنو: لا تنس نفسك..

ولم أكن قد انتبهت لانقطاع صوت الناى عن اللحن الذى تصدح به الفرقة بالخارج.

- ٤ -

انفض العرس، ورُفعت الكراسى، وأُطفئت المصابيح، وعاد المعازيم إلى بيوتهم، ووقفت مع صديقى ومسعود ننتظر خروج العريس لتوديعه، وكانت هى تقف بالباب تنتظر مسعود ليعود بها إلى بيتها.

قال صديقى لمسعود: إنك تعزف ببراعة.

- أنا مجرد هاوٍ.

وقلت: أنا شغوف جداً بالناى. وأنت عازف ممتاز.

وابتسمت هي لجملتى، وأطرقت بوجهها إلى الأرض.

فقال مسعود وهو يبدو خجلاً: أشكرك فهذه شهادة اعتز بها.

- اتمنى لو أزورك فى بيتك لتعلمنى العزف.

فلم يجب وإن كنت لمحت شيئاً كالتجهم على سحنته، وهى خرجت قليلا، عن عتبة الباب، وأقبلت نحونا: تأخرنا يا مسعود.

وقبل أن يذهب معها، سحبنى من ذراعى، وابتعد بى قليلاً، ثم قال هامساً بصوت خرج من بين أسنانه كالفحيح: لا تحاول أن تخدعنى فأنا لن أعلمك العزف ولن أصير صديقك فى يوم من الأيام.

- لا افهم ما تعنى.

وأدار لى ظهره، بعد أن تركنى فى حيرتى لا أريم، وسار معها متأبطا ذراعها، يخوضان فى الشارع حتى ابتلعتهما الظلمة تماماً، وأنا فى موقعى أرقبهما فى ذهول، واقترب صديقى ليدير وجهى نحو العريس الذى خرج لتوديعنا.

الكتاب فوق التل

كنت أعلم أن وراء الشارع الذى أعيش فيه تلاً مرتفعا، ولم أفكر فى الصعود إليه أبداً، كنت أرى الدرج الذى ينتهى إليه والحجارة الكبيرة البيضاء التى تبطن جوانبه، كما كنت ألمح ذؤابات الشجر المغبر تطل من سطحه وبالرغم من مرورى اليومى من الشارع الموازى لم أحاول اكتشاف عالم هذا التل.

سألته ونحن فى منتصف الدرج.

– أتقول أنه مأهول بالناس؟

– سترى بنفسك.

وحينما وصلنا إلى منتهاه، نظرنا إلى أسفل، فرأينا البيوت وقد صارت نائية وصغيرة، واستقبلنا أرضاً تتناثر عليها حشائش مهملة، وأشجار العبل متفرقة تتوزع بين جذوعها عشش من الصفيح يلهو أمامها – فى شمس الضحى – أولاد صغار بينما جلست أمهاتهم على «الطشوت» يغسلن الهدم القديمة وكنا نرى أسلاكا ممتدة بين أشجار منشورا عليها ملابس مبللة.

- أنك لا تستطيع تحديد البيت الذى تسكنه من هنا.

- لا أستطيع.

- يختفى وراء هذه العمارة.

- لم أكن أدرى أنى قريب من هذا العالم الآخر.

- أنت لم تر شيئًا بعد.

- لا تنسى أننى غريب.

كنا قد جسنا الكثير من الأماكن فى هذه المدينة، دخلنا المقاهى الكثيرة، وركبنا الحافلات عشوائيا حتى تصل إلى المحطة الأخيرة، فنتخير مكانا معزولا فى محطة نائية، ونفتح الكتاب الذى قررنا الاطلاع عليه، ونظل نتصفحه حتى نمله، فنعود من حيث أتينا، وكان قد قرر أن يصعد معى هذا التل لنتصفح كتاباً جديداً.

لم نعد نرى من المدينة التى صعدنا منها غير رأس البرج التى تبرق فى الشمس ومئذنتى مسجد القلعة اللتين تلاشتا فى غيمة الغبار الرمادى، أدرنا، ظهرينا لندخل بين بيوت الصفيح، مررنا على شاب يقتعد حجراً، كان منكفئا على نفسه واضعا رأسه بين كفيه مستغرقا فى أمر يهمه، ومستسلما لأشعة

الشمس الدافقة، لما اقتربنا منه رفع رأسه قليلا، ونظر إلينا ثم أحسسنا أنه لم يعد إلى حالته، بل ظل يتأملنا بتفحص، وللتأكد من ذلك، رنت منى التفاتة عجلى إليه، فرأيته وقد أدار جسده كله جهتنا، ولم يرفع عينه عنا، فرددت نظرتى بسرعة، وأخذنى مشهد الجاموس والنعاج الطليقة، كانت تميل على أطراف الحشائش وتنتزعها، وبعضها وقف متحديا عين الشمس، يجتر طعامه فى أناة، نعر الجاموس وثغت النعاج بعد أن تركت طعامها لتلتفت إلينا وتنفخ الهواء من أشواقها، وتلمس الزبد السائل.

- الجميع ينظر إلينا باستغراب.

- وجوه غير مألوفة.

وطالعت اللافتات المعلقة على جذوع الشجر وعلى الجدران القديمة، وأدهشتنى أنى أرى الأطباء والمحامين يهجرون الدنيا الواسعة ليفتحوا المكاتب والعيادات فى هذا المكان النائى المرتفع.

- هل ضاقت الدنيا بهم؟

- هم أبناء الحى.

ودخلنا شارعا ضيقا لننفذ منه إلى أرض أكثر ارتفاعاً تشرف على البيوت القليلة المتجمعة على نفسها، صعدنا، وصعدنا، إلى أن استوقفنا ظل الجازورين، واستطينا نسمة الظل اللطيفة، ولم نعد نرى شيئاً من المدينة الكبيرة، أأغلقت علينا هذه الدنيا الصغيرة، نتسمع لصياح أطفالها الذين يلهون تحتنا بأطواق من الكاوتش.

ويتوزعون على الحشائش يتقاذفون كرة مصنوعة من جورب مشبع بالماء والطين.

كانت الأصوات تخفت حينا، وترتفع حينا.

وتخيرنا حجرين كبيرين، وجلس كل واحد منا على حجر نسرّح البصر فى المدى الممتد أمامنا، ونعطى ظهرينا لغابة كثيفة من أشجار الجازورين النحيلة السيقان.

- يمكننا أن نبدأ.

- مكان آمن جدا، يمكننا التردد عليه بلا خوف.

- إننى وقعت فى غرامه فعلا.

وقلّب صفحات الكتاب ذى الغلاف الأحمر، ولمحنا صورة من أول الكتاب لرجل له لحية محفوفة ومنسقة، ويضع على عينيه

عوينات دائرية، وشعره الطويل منسرح كله إلى الوراء فيبين له جبين رحب.

- إنه غير من بدأنا به.

- دعك من كل الكتب السابقة.

وبدأ ينقض القراءات السابقة، وأوضح لى بأنه كان مخدوعاً، وأكد أن العالم كله خُدع زمنا طويلا بهذا الرجل ذى الشارب السميك والحلة ذات الياقات العريضة التى يغلق أزرار صدرها جميعا حتى يخنق العنق القوى الملتف.

- وماذا عن الرجل الآخر الذى بدأنا به أول مرة.

- أى رجل تقصد؟

- الأصلع ذو اللحية القصيرة.

- لا غبار عليه البتة.

وجاء ولد صغير ووقف أمامنا، يحرك يده ليهش الذباب، ولا يرفع عينه عنا، وينصت إلى كلامنا، وكلما حانت له فرصة من غفلتنا دنا منا أكثر حتى دس وجهه فى الصورة، وأشار إليها.

- لازال..

- نعم.. نعم رجل.. هيا اذهب لتلعب مع زملائك.

وعاند بشدة فى النزول إلى أترابه، وظل يبحلق فى الصورة.

- ولكنك تقول إن هؤلاء الرجال غرباء.

- طبعا.

- ألا يقدر رجل من عندنا..

- هناك رجال كثيرون.

- لماذا لا نقرأ لهم.

- لم يحن الوقت بعد.

وجاء أولاد آخرون يركضون وراء أطواقهم ثم تجمعوا حولنا يرقبوننا ولا يبرحون المكان بعناد.

- العبوا هناك.

ولم يتحرك أحد من مكانه، ظلوا على ثباتهم يبحلقون فى الكتاب بنهم.

- نريد أن نرى الصور.

- ليس هناك صور.. هذا كتاب.

- لمحنا صورة فى أول الكتاب

- نريد أن نراها.

- دعنا نترك لهم المكان ونبحث عن آخر بين الشجر.

ولحق بنا الأولاد صائحين بالتهليل والتصفيق.

- نريد أن نرى الصور.

فاغتاظ صديقى جدا، فرفع طوبة من تحت قدميه وحدف بها الهواء، فزع الأولاد، وتفرقوا بين الأشجار، ثم تجمعوا مرة أخرى فى حلقة وهم أكثر حماسة، والتهبت أكفهم بالتصفيق، بعد أن تركوا الأطواق تنزل وحدها إلى الساحة التى كانوا يلعبون بها.

فحدفناهم بطوبتين، وهرعوا ليوهموننا بالنزول، فزلقت رجل واحد منهم، فانطلق صوته بالعويل، والتم عليه الأولاد يرفعونه، ورأينا الشاب الذى مررنا عليه يترك مقعده، ويقبل جهة الأولاد وأشاروا نحونا باتهام.

- عيب على بغل من أمثالكما يعمل عقله بعقل عيل.

- اصروا على ملاحقتنا ونحن نريد مطالعة كتابنا.

- كتابكم أم تريدان الخلوة.

وجاءت أم الولد مشمرة الأكمام بزوبعة من الغبار، ولحق بها جمع من النسوة والرجال، ووقفوا يقلبون فى الولد الذى رفع

ذراعه التى سقط عليها متألما، وهجمت علينا المرأة بشراسة تجرجرنا إلى الأسفل لنسقط وسط الجمع الذى أوجعنا لكما وركلا.

– حتتنا موعودة بالوساخة دوما.

– ابحثوا عن مكان آخر يا أنجاس.

– كشفهم الولد فأصروا على ضربه.

ورحنا نلملم أثوابنا الممزعة، ونعود من حيث أتينا، حين استقبلنا السلم انتبه صديقى الذى أخذته نوبة من النشيج الهستيرى، فبحث عن الكتاب بين يديه لم يجده، ونظر إلىّ بخجل، وأنا لم أكن أرى منه غير شبحه، ذلك أن اللكمة التى هوت على عينى، طمست نورها.

شمس السحب السوداء

وصلنا المحطة قبل أن تموت الشمس تماما، وقف القطار بين الرصيفين الصغيرين، ينفث دخانا أبيض، يندفع إلى السماء المسقوفة بسحب سوداء نزلت أنا والمندوب لنمشى بعرض الرصيف، ركنت المخلاة على السور الواطئ، ووقفت أنفض البيرية والأفرول، فتتساقط حبات الرمل الصغيرة التى كنت أمضغ بعضها بين أسنانى، وتزاحم الجنود يرفعون المخالى والحقائب يسيرون باتجاه الباب وسط نسوة بعيون سوداء واسعة يرتدين عباءات سابغة، وكان هناك بعض الأجانب بوجوه حمراء وعيون زرقاء بلون ماء البحر الذى كان يطل علينا عبر الطريق.

قلت فى نفسى: وصلنا أخيرا إلى الأرض المجهولة، وهذا المندوب إن طلب شيئاً آخر سأضربه وكنا قد ركبنا قطار الثالثة فجرا من محطة القاهرة، وبعد إغفاءة طويلة من أثر الإجهاد صحوت على صحراء لا تنتهى، وتأكد مما نرى أن بلدنا صغيرة جدا، والصحراء محيط صخاب غادر، لا تحب القطارات تدفع كثبانها لتنام على الشريط، فيرتبك القطار وينزل الرجال يرفعون

الكومة بعد الكومة.. وكان المشوار طويلا ومملا، أنهى فيه المندوب على فلوسى القليلة، فهذا جنيه للتاكسى الذى أقلنا إلى المحطة، وهذا جنيه لرجل الشباك لينهى القسيمة وهات لنا سجائر نستعين بها على الطريق، وهات لنا سندوتشات للإفطار وأخرى للغداء، وأرى فى عينيه رغبة فى أجرة العودة.

قلت للمندوب: نسأل عن العنوان. فاتجه إلى العسكرى الجالس على السور الواطئ، ومد إليه الورقة التى بيده، ورأيت العسكرى يمد يده إلى أسفل، ويشير باستقامة ثم عمل انحرافة بيده، وفهمت أننا سنسير فى طريق مستقيم ثم سننعطف قليلا، واستقبلنا شارعا واسعا تنتصب فى منتصفه العواميد عليها إعلانات لبضائع اجنبية، وعلى جانبى الشارع تفتح المقاهى أبوابها، وتصف كراسيها المزدحمة بالجنود والرجال الذين يغطون رؤسهم بشالات بيضاء ورأيت الشارع يمتلئ بعربات صغيرة تجرها الحمير، وكنت أرى من فتحاتها وجوه نسوة متسترات ووجوه أطفال يبصون بشغف، والبحر كان فى نهاية الشارع مشغولا بشجاره العصبى مع الشاطئ المسيج بأبنية قليلة الارتفاع، لما اقتربنا من نهايته سألنا مرة أخرى: نروح لقيادة المنطقة الغربية منين؟ قال عسكرى المرور: ادخل أول

شـارع على الشمـال. ودخلنا، ثم سـرنا مـسـافـة طويلة، ورأينا سينما المحـافظة تلصق الأفيش الكبير لفيلم «المجرم» وهنأت نفسي: إذن سأقضي الوقت ما بين البحر والسينما، فقد يتحقق كلام الضابط الذي كلمني في مركز التدريب وقال ربنا معاك. هناك حتبلبط في البحر على كيفك.. ولكن لماذا كل هذا الأسى بقلبي.

قال المندوب: جعنا. قلت له: لما نطمن على المكان ناكل.

وعند البوابة وقفنا أمام عمود الخشب النائم على برميل ثقيل، وتقدم المندوب من الحارس وسأل: فرع الشئون المعنوية؟ أشار الحارس بيده الملفوف عليها شارة حمراء: ثالث باب على يمينك. وسألني: مستجد؟ قلت: آ....

كـان الفناء المفروش بالرمل النظيف واسـعـا، في الوسط تماما، ينتصب عمود ينتهي بعلم يرفرف والريح العنيفة جعلته يطرقع من حين لآخر، والفناء مفتوح عليه غرف كثيرة مظللة بالصفيح المرفوع على أعمدة الخشب، وقفنا عند الباب المكتوب على جانب منه «الشئون المعنوية» ووجدنا العسكري الجالس وراء منضدة عليها الجرائد اليومية، وطابورا من العساكر يمتد خارج الباب كانوا يصخبون ويطالبون العسكري بأن يحافظ على

الدور، انحشرنا بين الطابور لنصل إليه وسأله المندوب، وهو لم ينتظر ليتم كلامه، وقف ليسلم عليّ، وقال: مستجد؟ قلت: آه... قال: ادخل. ونادي: يا عبد الرحمن وخرج عبد الرحمن فى البلوفر البنى والبنطلون البيج وأخذنى من يدى إلى حجرة مظلمة، تفوح منها رائحة طبيخ، وألقيت المخلاة جانبا وأخرجت منديلى المكرمش لامسح عرق الوجه، قعدت أنا والمندوب على الكرويته الممتدة بعرض الحجرة، وقعد عبد الرحمن على التربيزة المرتفعة تحت الشباك، فلم تظهر ملامحه فى خلفية النور، وقال: أظن مؤهلات قال المندوب: أيوه. قال: وأنا خريج حقوق، ودفع إليه المندوب الأوراق، الخاصة بى، فقربها من نور النافذة، وقرأها بإمعان وقال: ملحق على فرع سيدى برانى وسألته بألم: يعنى إيه؟ قال: هنا الخلفية.. وهناك فرع المقدمة والقيادة فيه. وقال المندوب: ونروح لها ازاى؟ قال عبد الرحمن: دلوقت توصل أتوبيسات الضباط وسيادة العقيد عبد القادر قائد الفرع حيكون فيها، وياخدكم معاه.

همس المندوب فى أذنى: أنا جعان. قلت: وأنا أجوع منك.

وسمعنا عبد الرحمن فنزل عن التربيزة ليسحب إناء من تحت الدولاب الصاج. وقال: معلش دول اللى باقيين. ونزلنا إلى

الأرض، وسحب كل منا ملعقة، وبدأنا نأكل الرز المخلوط بماء الكوسة، كنت لا أحس طعما، فرحت ابلع دون استمتاع، وقبل أن ننتهى دخل علينا العقيد، فارتبكنا وألقينا بالملاعق على بقايا الرز، تقدم منه عبد الرحمن ووقفت أنا فى وضع انتباه بعد أن أديت التحية العسكرية التى تعلمتها فى مركز التدريب، فوجئ العقيد، ثم سأل: إيه ده؟ وقال عبد الرحمن: عسكرى مستجد يا أفندم ملحق بالفرع. وتطلع إلى الورق الذى قدمه إليه وقال: دا يجى معانا علىّ سيدى برانى. ثم وجه الكلام إلىّ: جهز نفسك.. الأتوبيسات حتتحرك بعد ربع ساعة.

وتقدم المندوب إليه بخوف: ممكن الاستلام هنا يا افندم؟ قال وهو يدير ظهره خارجا: لا.. لازم تسلمه القيادة.

خرجنا من البوابة لنقف تحت الشجرة الطالعة من السور، الأتوبيس قرب الرصيف، ومن بابه المفتوح خرج ضباط يفركون أيديهم من البرد، واتجهوا إلى الكشك القريب ولمحت العقيد واقفا مع جماعة من الضباط يتكلمون بصوت عال، يتهامسون قليلا ثم يصخبون بضحك يعقبه ضرب على الأيدى، اقترب المندوب منى واخذت حذرى، وقلت ها هو سيفصح فى أذنى بطلب آخر، وأنا سأواجهه بقوة قال: تشترى لنا علبة سجاير.

قلت: ماعدش معى فلوس. قال: يعنى ناخد المشاور من غير سجاير. قلت: وأنا أعمل إيه؟ قال: اشترى علبة صغيرة. قلت: ولا سيجارة. قال: طب تعال نشرب شاى على القهوة. قلت: الأتوبيس ليطلع.

واقتربت من حارس البوابة اسأله: الأتوبيس بيطلع الساعة كام؟

قال: دولقت حالا. وسألنى: بعتوك برانى؟ قلت: آ... قال: معلش كله جيش، وسألته عن هذه المدينة، فشرح لى أنها ليست مدينة إنما هى قيادة المنطقة وفروع الأسلحة من كل نوع، وأنها تبعد عن «مطروح» بمائة وخمسين كيلو متر، وقال إننى لو أملك وساطة يمكننى البقاء فى «مطروح» فهنا تنهى عملك الساعة الثانية، ويصبح الوقت ملكا لك، تستطيع أن تقضيه فى أى مكان، على البحر، على المقاهى، أو فى التنزه فى الشوارع، ثم إن هناك البنات اللائى يملأن العين ويفرحن القلب، وفى الصيف تعيش الجنة الحقيقية، تلتقى بالمصطافين، وتذهب إلى الشاطئ لتستحم وسط بنات، من جميع الأجناس، حيث يبدين أفخاذهن وأثداءهن، وحكى لى همسا أنهم فى الصيف يهربون البنات إلى هذه الغرف ويفعلون بهن كل ما ترغبه النفس، ولم يُتم كلامه فقد

سمعت صوت العقيد ينادى: بينا يا ابنى. فأفقت من الحلم، وازداد الأسى بقلبى، ولما وضعت قدمى على سلم الأتوبيس أدفع المخلاة أمامى، شعرت بأننى أودع الدنيا، والمندوب كان ورائى يستعجلنى والعقيد كان فى أول كرسى، استوقفنى ليقول لى: اقعد فى الآخر.. وماتنزلش، إلا لما تشوفنى أنزل. قلت له: حاضر يا افندم.

واحتضنت المخلاة بين يدى، وسرت بها مرتبكا، أدوس الحقائب المكدسة فى الممشى وأخبط اكتاف الضباط، فيدفعوننى من ظهرى: حاسب. ويخبطوننى فى جنبى: أنت أعمى. الصقت وجهى بزجاج النافذة، وجلست إلى جوار المندوب الذى كان قد سبقنى، قعدت على الطرف إلى جوار النافذة المغلقة أمسح وجهى بكم السترة، وظللت صامتا حتى هدأت خفقات قلبى، نظر المندوب إلىّ بعداء، وأراد أن يتكلم فتفاديته بالانشغال بتأمل الأرض التى تجرى إلى الوراء، كانت السحب السوداء قد تمزقت والشمس المحتقنة ترمى أشعة قانية تلون الحواف، وتحتها كان نبات شائك ملقى على امتداد الصحراء، ورأيت فتاة بدوية متلفعة بشال قطيفة أحمر، تمسك عصا، وتسير وراء نعاج ضامرة ترعى النباتات، والهواء كان يندفع فى وجهها، فيرمى أطراف

الشال إلى الخلف، ويرمى ذيل الجلباب المرفرف وقسمات جسمها النحيل تتشكل فى قبضة الريح الطليقة، تكويرتا النهد، ورهافة الوسط، وفخذان مدملجان بينهما فراغ ممتلئ بالهواء، توقفت عيناى طويلا على البنت، حتى انفلتت منى، ورحت ابحث عن غيرها، فلم أجد، قلت: أتابع موت الشمس. فهناك فى البلاد الأخرى لم أر الشمس حين تموت.. هنا أستطيع أن افضح لعبتها.. أركز فيها النظر وأرى انسحابها البطئ، والشمس صارت كرة حمراء ملتهبة، تقف فى الفراغ الأزرق بين كتل السحاب، قلت: لن تفلت منى.

ورأيت زحفها الهين وسقوطها الخفى حتى لامست الأرض، وثبتت عليها مدة طويلة، فتآكل جزء من محيطها فتهشمت، وتآكل نصفها، ثم ثلاثة أرباعها ولم آر أبدا اختفاءها، كيف سقطت فى جب الظلمة؟ هل غفوت فى هذه اللحظة؟ لا أعتقد، فجأة توارت كأنها أخرجت لى لسانها الخفى، وقالت: لن تكشف لعبتى أبدا. وصارت الصحراء بلا شمس، انطفأ الجانب الغربى الذى يسرع الأتوبيس تجاهه، وانسدل ظلام أسود، فبرز ضوء لمبات الأتوبيس ضعيفا أصفر يوزع نورا عليلا، يسقط على رؤوس الضباط المكشوفة ركنت رأسى علي زجاج النافذة البارد، ونمت من تعب الملاحقة.

الـــــــدوران

بعد أن أدرت ظهرى لضجة «الدوران» والأنوار والمقاهى المفروشة على الأرصفة بدأت أرقى السلم الحجرى، وكان علىّ أن أكون حذراً، لأن الكتل الدبشية البيضاء، كانت مقتلعة فى أكثر من موضع، وفى ظمة الزقاق المرتفع كان علىّ أن أتفادى أكوام الزبالة وجلود الحيوانات المدهوكة بالأرض، عند الباب الذى ينفلت من فرجته المضيئة نسيج من الدخان يبدو متموجاً فى شريط الضوء، تتخطفه الحلكة، فلا يبين منه شىء، وكان أنفى تشمم رائحة الحشيش.

ورأيت سكان الدور الأرضى يفترشون مدخل البيت على حصير من البلاستيك مهترئ، الرجال أمام الموقد المصهلل بالجذوات الياقوتية، وبالخلف تجلس النسوة مربعات على درجات السلم وفى مداخل الحجرات.

سألت عن منصور فأشار أحدهم بيده إلى أعلى، ولم يزد عن ذلك، فمرقت من بينهم، وأحنت النسوة ظهورهن لأعبر من بينهن إلى الدرجات الزلقة وسمعت القهقهة والهمس الخفى بعد أن أخفانى ظلام السلم.

يسكن منصور الدور الثانى فى إحدى هذه الغرف الثلاث

التى تنفتح على مساحة مبلطة ومرحاض مشترك، يسكن حجرة مجاورة لحجرة العجوز التى تبرز قابعة أمام وابور يوش، فى نور داكن لا يبدى غير أشباح الأشياء، فى كل مرة أحاول، ألاّ ترانى العجوز، لاتفادى نظرة العداء التى تلقيها علىّ من جانب عينها، ولكنها لمحت شبحى داخل «الزنط» الميرى، فألقيت عليها تحية المساء، فهمهمت بصوت باهت، وأدارت وجهها فى عمق الحجرة.

حاولت التودد إليها أكثر من مرة، ولكنها تأبى تقربى بحزم، وقد نقل لى منصور رغبتها وهو يضحك: هذه المرأة لا أدرى لم لا تطيق وجهك رغم كثرة صحابى إلا أنها أشارت عليك بالذات وقالت هذا الولد لا تأتى به أبداً، هو الذى أفسد عقلك، وسيقضى على مستقبلك.

وأخذت كلامه بخفة، وقلت: والله لا أعرف من منا سيضيع مستقبل الآخر، دنوت قليلا من بابها لأتأكد من وجود البنت التى تقيم معها، فرأيتها مقبلة من ركن الغرفة البعيد مَمسكة بشىء فى يدها الممدودة للعجوز فغمزت للبنت بعينى، فهلل وجهها فى ظلام الحجرة، وقلت للعجوز بروح الود كأنما أمارس طقسا آليا: مساء الخير يا حاجة.. منصور موجود؟

وانكمشت فى ثوبها، ومال معظم البدن السمين المفروش على

«الكليمة» وادعت الاستغراق فى الإناء، الذى يتصاعد منه البخار.

وتركتها فى حالها لأطرق الباب المجاور، ارتج الباب لطرقاتى، ودققت عليه مرة ومرتين دون مجيب، حتى جاءنى صوتها رغم أنف العجوز: منصور فوق.

وأقبلت على السلم الخشبى الذى تنتهى درجاته إلى ثغرة دائرية مفتوحة فى السقف وهتفت: يا منصور.

فتدلت سيقانه على رأس السلم، وبدأ يهبط نحوى ممسكا بيده كتابا لمحت عنوانه «التطور اللامتكافئ».

وقلت قبل أن نتحاضن كالعادة: أما زلت تتعارك مع هذا الكتاب؟

– رغم أنى ضد وجهة نظر المؤلف كاملة إلا أنه لا يخلو من وجاهة.

– هذه ثانى أجازة لى وأراه لا يفارق يدك.

قال وهو يعالج قفل الحجرة: أنت تعرف طريقتى فى القراءة.

كانت الحجرة واسعة قليلا من أمام وضيقة من الخلف يقطعها حائط المنور المفتوح عليه نافذتان ترى العين منهما حالة الجيران، فى الواجهة منضدة مكدس عليها أشياء كثيرة، كتب

وأكواب فارغة وفرشاة للشعر وساعات قديمة لا تعمل، وكرسى وحيد قاعدته من خشبتين مفارقتين، وعلى الحائط مرآة مثلثة الشكل، ورف عليه الكتب المجلدة ومشجب عليه معطف كحلى وسروال، وعلى الأرض مرتبة صغيرة متربة، وخرقة كبيرة ممزقة وأكداس من الكتب ونعال مهرئة متناثرة فى كل مكان.

وضعت الحقيبة على الأرض وخلعت «الزنط» وجلعته فوق الكرسى لأتمكن من الجلوس.

قال: دائما أنت موعود معى.. الليلة ستقوم بتوزيع الأوراق على البيوت.

– لن أستطيع أن أعاونك فى هذا.

– إن الخدمة فى القوات المسلحة تدفع الخوف إلى قلبك دفعًا.

– ولكنى أعجب بشجاعتك فى نفس الوقت، لا أدرى كيف تواتيك الجرأة على النوم ملء جفونك بينما نحن فى الشارع نتنقل من بيت إلى بيت ألا تخشى أن يكبسوا على الحجرة ويقبضوا عليك؟

– من هذه الناحية لا تخشى علىّ.

وسألنى عن قراءاتى للجنود الذين أقضى معهم المدة، فحكيت

له كيف أنني أحاول معهم، ولكنهم يبدون كأنما هم مقبلون من عوالم نائية، ولا أستطيع التعامل معهم إلا في الحدود الضيقة، كأن أقرأ لهم قصائد من دواوين العامية فهذا هو ما يهللون له بشدة، وإن كنت قد كسبت محبتهم، صاروا يلتفون حولي، ويناصرونني على الضابط الذي كثيرا ما يشتبك معي في حوار سياسي يستهلك معظم الليل.

وسمعنا الطرق الخفيف على الباب، ولمحت جانب وجهها الفرح، كانت قد غيرت خلعة العمل، وارتدت جلبابا من الكستور تتوزع عليه زهور صغيرة صفراء على أرضية بيضاء، وشعرها المبلل سقطت منه خصلات على الجبهة الوضيئة.

مالت نحونا، وسألت: أعمل لك شاي يا منصور؟

– شكراً.

قلت له هامسا: ولكني أريد شايا.

– سأضطر للنزول بعد قليل.

كانت تقف جانبا بحيث لا يراها غيري عاقدة يديها فوق قبة بطنها، والبسمة لا تفارق وجهها، ورفعت لها أصبعي بإيماءة تفهمها: واحد فقط.

وأشارت بكلتا يديها على عينيها، واختفت، وشعرت بقلبي

ينتفض، ويدفق الدم ساخنا فى العروق، فدب النشاط فى جسمى، وقمت عن الكرسى لاذهب إلى الحمام فاغسل وجهى. عند عودتى وجدت على المنضدة كوب الشاى يحوم على سطحه بخار دافئ، ومنصور جلب لفائفه من كرتونة موضوعة خلف نافذة المنور وبدأ يدسها فى حقيبة جلدية قديمة، ووقف متأهبا للخروج.

قلت له: الوقت مازال مبكرا.

– عندى موعد معهم.

– لولا أنى قادم من مشوار بعيد يهد البدن...

– أنا أحسدك على قلبك الميت.

سمعت السلام الجمهورى ينهى إرسال تلفزيون الجيران وأنا ممدد على المرتبة فى ظلام الحجرة، وبدأت حواسى تتحرك فى رقادها، وكنت أرى كتل الأشياء فى نور باهت صادر من المنور، وقمت كاتما أنفاسى لأرفع ترباس الباب، ورأيتها تدخل بكتفها من الباب، فأمسكت بكفيها الباردتين، واعدت غلق الباب، وسحبتها نحو الجدار، ووقفت لصقها وهى مستسلمة تماما واستطعت رغم الظلام تلمس ملامح البهجة بلقياى.

– تأخرت هذه المرة.

قلت وأنا أميل لألثم جانب العنق النابض: شهر لا يزيد ولا ينقص.

وشعرت بنهديها ينبضان فى صدرى، فمددت يدى لألملم بدنها النحيل بين ذراعى.

- يا لها من مدة طويلة.

- ظننتك وقعت على أخرى فى الموقع الذى تعيش فيه.

فحبست الضحك المفرد فى صدرى، وقلت: إن عينى لا تقع على امرأة إلا من نافذة السيارة وهى تعبر شوارع مطروح.

سألت باندهاش يكمن فيه الرغبة فى التأكد: يعنى وحدتك فى مكان صحراوى خالص؟

قلت وأنا أسحبها إلى المرتبة: عينى لا تقع إلا على عشرين من الجنود العادة الذين يقيمون معى فى نفس الخيمة، ولا أرى النساء إلا على شاشة السينما التى أعرضها فى الوحدات.

فانحلت يداها، وسقطتا بإهمال فوق الخرقة المكومة فى جانب، وركنت ظهرها على الحائط القريب، فتقدمت نحوها لأغوص فى لحمها المباح، حين أردت أن أجمع شفتيها فى شفتى، أدرت وجهها بعيدا، وقالت: ولكن إلى متى تظل....

قلت وأنا أحاول استعادتها حتى لا تتمادى فيما هى مقبلة

عليه: هانت كلها شهور قليلة وأنهى الجندية.

واستحوذت عليها تماما، وأسقطت رأسها على الوسادة المبرومة، وضممتها إلى صدرى بعنف، وسبقت يدى إلى مواضع الإثارة فيها، حتى استسلمت تماما، وانتبهت على زحفة القدم خارج الباب، وحين وضعت عينا واحدة على الفرجة واجهتنى العين الأخرى فى الخارج محملقة على اتساعها، فخفق القلب، وكادت تند عنى الصيحة المهلكة، ولكنى تماسكت، واسندت ظهرى على الحائط، ورأيت الشبح فى ظلام الخارج يتحرك بعيدا، ولا أدرى إن كان هبط درجات السلم أم عاد إلى حجرة الجدة المجاورة.

قالت حين عدت إليها مخضوضا: ربما تكون جدتى.

– لا أدرى.. لم أر غير عينا كبيرة تحملق داخل الحجرة.

– من الأفضل أن أعود حتى لا تكتشف خلو مكانى.

وتركتها تذهب، وتفرغت للآلام التى توخز ساقى..

انتبهت على النور الساقط على وجهى من النافذة، ولم أجد منصور إلى جوارى كما اعتدت فى الأيام السابقة، ولم أعثر له على أثر، وتأكدت أنه لم يعد منذ فارقنى البارحة.

من الأفضل أن أجمع أشيائى وأعود إلى البلد قبل أن يقع

المحظور. ووضعت «الزنط» على كتفى وأخفيت وجهى بطرطوره، وحملت الحقيبة دون أن أغسل وجهى نازلا إلى الشارع متواريا عن سكان البيت الذين لم يستيقظوا بعد، هبطت السلالم الحجرية، وتفاديت العودة إلى «الدوران» الذى دبت فيه يقظة الصباح، ودخلت شوارع الحارات الضيقة، كانت الأبواب لم تزل موصدة... وشعرت بالجوع يقرص معدتى، فأكدت لنفسى أننى حين أصل إلى ميدان المحطة، سأنعطف إلى مقهى «العلمين» حيث أتناول إفطارى وأشرب الشاى. ولمحت وأنا أعبر الشوارع الساكنة أوراقا متناثرة أسفل عتبات الأبواب، ملت على واحدة منها، ورأيت الخط الأسود الغليظ الذى آلفه، وتحركت عاصفة هوائية خفيفة، فتحركت الأوراق فى موجة واحدة تتضارب بين الشوارع الضيقة، وكانت هى الصوت الوحيد فى السكون.

شتــاء المدينــة

شارع «قدرى» وراءنا، وبدأنا ندخل حارة «دبشة» كل شىء كان نائما عدا قطة صغيرة تلبد بالقرب من كوم الزبالة، وتطلق مواءً متواصلاً يرعش بدنها النحيل، واستقبلنا عند الباب العريض سلم تآكلت درجاته فى المنتصف والتفت إلىَّ حمادة: هذا هو البيت.

- رقم سبعة .. أليس كذلك؟

وحاول أن يخفى الدهشة التى كانت تبدو على وجهه.

صعدنا الدرج متشبسين بالدرابزين الحديد. وتلمست يدى طبقة الصدأ التى تعلوه. والتقينا بقطة أخرى. مرقت بسرعة من بين سيقاننا، بعد أن أسقطت الصفيحة التى أفرغت محتوياتها على البسطة.

الباب كان طويلاً له شراعة من حديد وزجاج دفع حمادة جرمه الكبير ودلف إلى الداخل، وكنت معه فى الصالة المظلمة. اتشمم الرائحة الراكدة للمكان المجهول. وشعرت به يندفع أمامى ماداً إحدى يديه. وقال هامساً: خلى بالك أمامك جدار.

وكنت قد صدمت به قبل إخبارى، فجعلت الحقيبة فى يد

واحدة. وقدمت اليد الخالية إلى الأمام. وأضئ الممر فجأة. وظللت لفترة استوعب المكان. ينتهى الممر بشرفة سقطت أرضيتها. وبانت قضبان الحديد من خلال الفجوة المهدمة. وكان باب الشرفة مركوناً على الحائط كعجوز مصاب بالربو.

- هذه هى غرفتى.

دخلت وراءه لأرى حجرة لها أرض خشبية لا يفترشها شىء، هناك فى آخر الركن سرير سفرى صغير عليه ملاءة بيضاء ناصعة ودولاب من ضلفتين عليه حقيبة سفر كبيرة، ومنضدة يتدلى فوقها بالضبط مصباح امتد سلكه من السقف المرتفع وعليه غطاء من الصاج يجمع النور فى بقعة وحيدة فوق المنضدة.

بدأ حمادة يخرج محتويات الحقيبة الورقية ويضعها على المنضدة وكنت قد جعلت حقيبتى بين قدمى، ورميت نصف بدنى بعرض السرير وقلت له: أنت تبالغ فهى حجرة معقولة.

هز كتفه بإهمال وقال: لكن.. لا أستطيع التكيف معها أبداً.

- هو مكان مؤقت حتى تستقر أمورك فى العمل.

- أخلع هذا اللباس الميرى فأنا لا أطيقه وأرتدى البيجامة... هل معك بيجامة؟

- معى.

وقمت عن السرير، ونظرت يدى إلى أعلى وإلى أسفل، ودرت بجذعى حتى طقطق وانحنيت على الحقيبة لافتحها، فسقطت هذه الورقة تحت قدمى، رفعتها بين يدى واقتربت من نور المصباح «اترك هذه الحجرة وإلا قتلتك فوراً».

صحت فيه: انظر.

طالع الورقة التى ارتعشت بين أصابعه، ثم نفخ بملء شدقيه: ها هو يعود للتهديد من جديد. ورفع النظارة عن وجهه ليضعها على المنضدة فإذا هى فوق ورقة مماثلة اترك هذه الحجرة فوراً وإلا قتلتك الليلة.

- من هو؟

- لصاحب هذه الشقة أخ كان يقيم هنا وحده وحينما احتاج لتأجيرها أخذه ليقيم معه فى الحجرة الأخرى ولكنه رفض تماماً النوم وفضل فى الممر الذى دخلنا منه وأنا لا أمانع فى بياته هنا أثناء غيابى فى البلد.

- قد يفعلها ويقتلنا معا.. الإحتياط واجب.

- إنه أبله قليلاً.

- هذا ادعى للإحتياط.

وبدأنا نرفع معا المنضدة لنجعلها وراء الباب. وكدسنا فوقها الحقائب والكراتين، وجئنا بالكرسيين وجلعناهما مقابل السرير الذى جلسنا عليه مخففين من ملابس السفر، وبدأنا نأكل عشاءنا بعد أن فضضنا عنه لفائفه. وفردناه على الكرسيين.

قلت: الله يجازيه كنت أود لو أغسل وجهى من غبار الطريق.

– نحن نريد الماء لأكثر من غرض، على العموم الصباح رباح.

بعد أن انتهينا، مسحنا أفواهنا بالورق. وأعددنا السرير للنوم، ثم أطفأنا المصباح وتمددنا على السرير، وفردنا اللحاف والبطانية على أبداننا المرهقة.

قال حمادة: أخوه دائم المصاحبة لبنات من الشوارع يزرنه فى حجرته بينما الآخر يقبع منتظراً فى الممر.

– هل هم حقا من عائلة الششتاوى؟

– جيلنا لم يعش مجد آبائهما، ولكن سمعت الكثير عن هذه العائلة. هذان الولدان هما آخر الأحياء من فرع أبيهما تركا البلد بعد أن جار الزمان على الأب ولحس ثروته الطائلة بعد أن سلب منهما الدار المرهونه تنكر لهما الآخرون ولأنه لم يعد لهما أحد قدما إلى القاهرة ليلتقطا رزقيهما، وحصل الأخ الأكبر على

هذه الشقة من سنوات عدة.

– أنت بحاجة إلى مدفأة.

– حين أكون وحدى أدفس وجهى تحت الغطاء وأتدفأ بأنفاسى.

– وهل الأخ الأكبر فى حجرته الآن؟

– لا أدرى.. فأنا نادراً ما أراها مفتوحة ولا ألتقى به غير مرات معدودة حين أستيقظ مبكراً وأجده فى الحمام.

وسمعنا الخطوات الحذرة فى المر، وأضئ النور الذى سقط علينا من الزجاج أعلى الباب.

– ها هو يعود.

فانكمشت نحو الجدار، وغطس حمادة قليلا فى قعر السرير، وسمعنا الباب وهو يدفع ولكن الأثقال حالت دون الفتح.

قال حمادة هامساً: المشكلة أن الحجرة غلقها ضعيف.

وسمعنا الآخر يزوم ويخبط رجله فى الأرض. وجاءنا صوته من بين فرجة الضلفتين.

– سأذبحك.

وازددنا انكماشاً تحت الغطاء، حتى سال منا العرق برغم

البرد الشديد ولم نعد نسمع شيئا.

- يا ترى ماذا يفعل الآن هل ذهب لإحضار السكين؟

- لا تخف ربما ذهب إلى الحمام.

ثم عاد صوت الخطوات الحذرة مصحوباً بخرفشة أوراق.

- ربما يفترش الجرائد القديمة لينام عليها كما يفعل كل ليلة.

- هل يفعل ذلك معك دوماً؟

من حين لآخر.. ولكني أراه كل صباح ممدداً على جرائد تاركاً بطنه الكبيرة عارية بينما باب الشرفة مفتوحاً. وأدهش وأسائل نفسي ألا يشعر بالبرودة أبداً..

- أريد أن أرى شكله.

وزحفت على اليدين والساقين جهة الباب وقمت لأنظر من ثقب المفتاح فرأيت شاباً سميناً له وجه أبيض كبير ملطخ ببقع من الشحم على الأصداغ وفوق الأنف، وشعره الأكرت كان كثيفاً ويسقط حول رقبته المدفوسة في «بلوفر» صوفي ممزوع في أكثر من مكان، كان يرتكن على الحائط وقد خلع نعله الضخم خارج فرشة الجرائد ماداً سيقانه على آخرها لأرى القدمين العظيمتين بوسخهما المنبث حتى طرف البنطلون المرفوع قليلاً

على الساق المشعرة.

كان يقلب فى الجريدة ويحملق فى الصور.

- إنه يطالع الجريدة.

- كل ليلة يعود بـ «الجمهورية» يظل يتصفحها حتى يسقط فى النوم فوراً.. ويترك النور مضاء إلى الصباح.

عدت إلى مكانى الدفئ وسألت حمادة: كيف سيأتينا النوم ونحن على هذه الحال من الهلع؟

- لا تهتم.. حاول أن تنام.

- أنا بحاجة شديدة للنوم، ولا ادرى كيف سأستيقظ فى الخامسة دون منبه؟

- إجّل ذهابك للجيش وأنا أفسحك فى الغد فسحة جميلة.

- لا أستطيع.. الغياب فى الجيش مسئولية وأنت سيد العارفين.

وسكتنا لنحاول أن نتلمس أطياف النوم التى بدأت تحوم على رءوسنا.

بعد فترة لا أدرى إن كنت نمت بالفعل أم أن حلماً ما بدا يتسرب تحت أجفانى المطبقة سمعت الدفع على الباب، والمنضدة استجابت للدفع فتزحزحت إلى الوراء، ثم أعيد غلق الباب،

وانحرفت بعينى نحو حمادة فوجدت وجهه تحت الغطاء. فهززته بكوعى. فقال من تحت الغطاء: أنا سامع. ورأيته - على بقايا نور الشارع الأصفر - يقبل نحونا فى كتلة شبحية مهولة. مد يده على وجهينا قلت فى سرى: هذه هى النهاية سيطبق أصابعه على أعناقنا، وكانت يدى فى يد صديقى تحت الغطاء. وضغطت عليها بقوة لأنبهه ففهم قصدى. ولكننا أحسسنا بالبطانية تسحب من فوق اللحاف ليعود بها نحو الباب... وسمعته يقول: حتى أنت تسحب النساء إلى حجرتك.

بعد أن أحكم غلق الباب... سمعته يتأوه ويطلق جعيراً مصحوباً بضربات قوية من رأسه فى حائط المر. فانحل ضغط اليدين المرعوبتين تحت الغطاء واستدرت على ظهرى بعد أن رفعت حافة الغطاء لاتنفس الهواء البارد.

الفهرس

القسم الأول

١- طلل النار........................ 11
٢- مدينة صغيرة تحت الأرض......... 53
٣- الفارس وأنا في غرفتى............ 67

القسم الثانى

١- بئر الماء الساخن.................... 75
٢- مصباح الجاز......................... 83
٣- الدار الأخرى......................... 91
٤- المقهى أغلق أبوابه.................. 97
٥ - انطفاء 105

القسم الثالث:

١- عيون سوداء فى العرس............ 119
٢- الكتاب فوق التل.................... 131
٣- شمس السحب السوداء.......... 141
٤- الدوران................................ 151
٥- شتاء المدينة........................ 163

صدر للمؤلف:

١- الضحى العالى - قصص - دار شهدى - ١٩٨٥
٢- عكس الريح - قصص - مختارات فصول
الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧.
٣- خبز الصغار - قصص للأطفال -
دار الفتى العربى - ١٩٨٨.
٤- عطش الصبار - رواية - دار الهلال - ١٩٨٩
٥- وش الفجر - قصص - مختارات فصول
الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣
٦- أسد السيرك - قصص للأطفال -
دار الفتى العربى - ١٩٩٤
٧- ترنيمة للدار - قصص (مختارات) - الهيئة العامة
لقصور الثقافة (أصوات) - ١٩٩٥
٨- طفولة الكلمات - قصص للأطفال - الهيئة العامة لقصور
الثقافة (كتاب قطر الندى) - ١٩٩٦.

تحت الطبع:

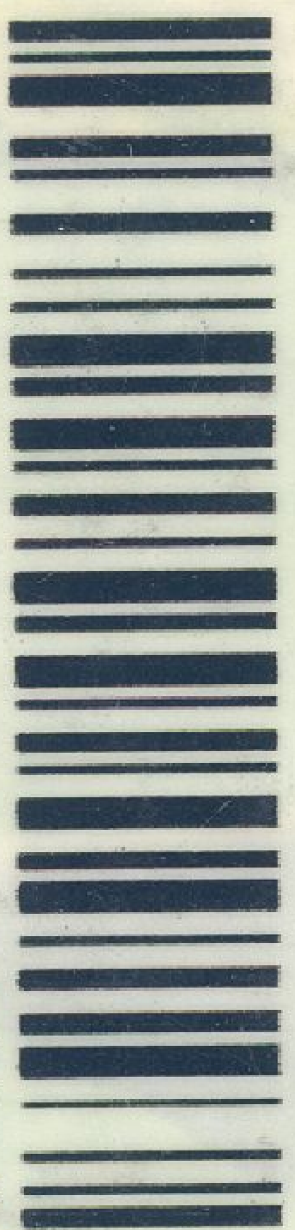
١- الجزيرة البيضاء - رواية
٢- الأيام الأخيرة للجهل - رواية للأطفال.
٣- هكذا تتكلم الأشياء - قصص للأطفال.
٤- حقل صغير - قصص للأطفال.

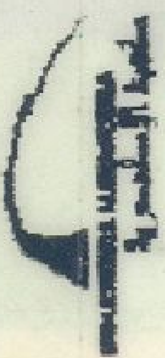
رقم الايداع : ٩٧/٥٩٧٩
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-235-825-5

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦



وتحركت ببطء صاعداً إلى شارع المحطة ورأيت البوابة الحديدية نائمة لتحجز الطريق لقطار الخامسة المقبل من جهة العاصمة، كان باعة الفاكهة يطفئون أنوار مصابيحهم، ويفتحون الإذاعات على قرآن الصبح، وبائع الجرائد وقف أمام عربة التوزيع يستلم الصحف والمجلات، والزبائن العائدون من صلاة الفجر يقفون بانتظار الحصول على الصحيفة الأولى وأصوات الوابورات تضج تحت صوانى الزيت المغلى، وصبية موقف السيارات يقفون تحت المظلة يدلقون الماء من الدلاء ويدعكون سطوح العربات بالفوط الصفراء، والمنادى اتخذ له مكانا على مفترق الطرق ورفع عقيرته بصوت رخو: مصر.. مصر.





تصميم الغلاف: عمر جهان



خمسون قرشا

الأمل للطباعة والنشر